العداوة والمعتدون في القرآن الكريم

د. يحيى محمد يحيى

دارت كلمة « العداوة » ومشتقاتها فى اثنين وتسعين آية من آيات القرآن الكريم غطت فيها كل الجهات التى تفوح فيها أو منها رائحة التجاوز والتحرك فى المحظور والمنهى عنه .

والناظر فى معاجم اللغة يجد تلك اللفظة ومشتقاتها يدور حول معنى التجاوز والحركة المنهى عنها لما يترتب عن ذلك من أذى وضرر . والتجاوز يكون اثر تبيان المحدد والمعلوم ، قدرا وقيمة ووصفا ، فاذا ما حدث تخط عنه واعتلاء عليه قيل انه اعتدى عليه وتجاوزه المعتدى وانصرف الى غيره غير عابىء بنهاية ومآل ما انتقل اليه .

ولاشك أن المنقول منه يختلف عن المنقول اليه والا ما حدث تجاوز وانتقال . لذا تتبع المباغضة اثر التعدى لوقوع الاختلاف والتباين بين ما تركه المعتدى ومن انشغل به وهنا يقال وقعت العداوة وحدثت الشحناء والبغضاء .

فالاعتداء تجاوز للحق والحد والقدر ، سواء كان كل ذلك محسوسا أو مفهوما ، قليلا كان أم كثيرا ، وسواء وقع الاعتداء من عاقل أو غير عاقل .

فمما ورد فى اللسان والقاموس ، قولهم « عدا يعدو عدوا وعدوا وعدوانا الرجل والفرس بمعنى : جار وغار ، فيقال للرجل : أعديت

فى منطقك أى جرت • وللخيل المغيرة عادية ، وعدا الماء يعدو اذا جرى »(١) • وواضح أن الجور من الرجل معناه الظلم وهو مجاوزة العدل ، والعدل : حق وحد وقدر معلوم ومدرك •

وانسحاب تلك المعانى على غير العاقل تعميق لمعناها وتثبيت لوقعها على النفس وتكرير لمسماها حتى يجتنب • ويقال : « عدى عن الأمر أى جازه الى غيره وتركه •وتعادى من التعادى وهو التفاوت والاختلاف وعدم الاستواء»(٢) فكأن عدم الألفة والوداد جابا التعادى والاختلاف وعدم الوفاق ، فالترك والصرف كان عن المأمور به والانشغال والتوجه وقع مع المنهى عنه •

لذا كان العدو مقابلا للصديق والعداوة مقابلة للولاية والتواد لذا يقولون « العدو ضد الصديق والولى ، والاسم العام منه العداوة، وتعادى القوم : عادى بعضهم بعضا ، وأعداه الداء يعديه اعداء اذا جاوز غيره اليه »(٣) •

وبعد هذه المقدمة اللغوية لمادة تلك الكلمة ودوران معنى المشتق منها ، كيف تقلبت فى آى القرآن الكريم وكيف سرت فيها ومنها تلك المعانى التى تنبعث أول ما تنبعث من المخالفة والعصيان ورفع راية التمرد والعناد الذى يجر الى المخاصمة والمخالفة وفتح باب العداوة والبغضاء ؟؟

من المعلوم الجلى ، أن القرآن الكريم ، كتاب رحمة وهدى وحب ومسالمة لكنه ، لا يكف عن تبصير الناس بكل خير ليلتزموه ، وكل مسيىء ليجتنبوه لذا ، نجد عرضه لمسألة العداوة والمعتدين ، قد انحصرت فى

(١،٢،٣) راجع تلك اللقطات فى اللسان والقاموس مادة «عدا» .

قضية واحدة ، هى أم القضايا ورأس الأمور كلها ، ألا وهى مسألة الطاعة والعصيان .

فمن أطاع ربه التزم وثبت . ومن عصاه تجاوز واعتدى . والأمور يسلم بعضها بعضا ، فالطاعة تؤدى الى الوداد والولاية . والعصيان يؤدى الى السخط والمباغضة والعداوة . ثم تكون حتمية المآل : حزب الله أو حزب الشيطان ولا ثالث لهما .

فالآيات جميعها ، تتركز حول طاعة الله لكسب وداده وعطاياه وتحذر من موالاة الشيطان لتجنب السخط والعقاب من الله تعالى . وتزيد الناس تبصرة فتعرض لصور وأمور قد تدق عن الفهم أو الادراك فيقع الناس فيها وتحسب عليهم عداوات واعتداءات تجاه ربهم وخروجا على أوامره .

ثم تحثهم — فى جانب آخر — على مؤازرة أهل الله ومعاداة عدوهم ثم تهديهم الى سر وقوع المخالفات وايجاد الخير والشر ليحيا من حى عن بينة ويهلك من هلك عن بينة ، ثم تربطهم بربهم القادر على تحويل العداوات الى ودادات ومصادقة والمصير للصداقات — فى الباطل — الى عدوات ومخاصمات وشتائم وتنافر . ليزداد أهل الله تمسكا بالحق والحد والقدر ولا يتجاوزونه مادين أبصارهم وبصائرهم الى ما بعد الدنيا من دار جزاء ومجازاة .

وكأن الآيات فى مضمونها تزجى لنا رسالة رقيقة موجزة ومنبهة فحواها : « أن عدوك ليس من يسرق مالك أو بيتك انما هو — بحق من يسرق ثباتك والتزامك مع ربك ، فاحذروه » .

وبعد قراءة ودرس لمجموع آيات هذا البحث أمكن تصنيفها وتنويعها على هذا النحو الذى يدعم ما قلناه ، ويثبت ما ذكرناه .

١ ــ سبع عشرة آية منها ، تحكى عن أصل العداوة ومنبعها الذى لا يقع الا عن طريق واحد هو العصيان والتمرد •

٢ ــ وست عشرة آية منها ، تحكى عن أول العداوات وهى عداوة الشيطان لربه وأنها هى التى جرت وتجر كل العصاة الواقعين فى قبضته •

٣ ــ وثمانى آيات منها ، تحكى عن عداوة العصاة والكفر لله تعالى •

٤ ــ وثمانى آيات منها ، تحكى عن عداوة الكافرين والفاسقين للمؤمنين •

٥ ــ وسبع وعشرون آية منها ، تحكى عن تجاوزات واعتداءات قد تقع ولا يدرك خطرها ، كثير من الناس •

٦ ــ وتسع آيات منها ، تحكى عن سر وجود العداوات ومداها •

٧ ــ وسبع آيات منها ، تحكى عن قدرة الله فى تصيير العداوة محبة وقلب المحبة عداوة •

وبذا تكتمل الآيات وتبلغ بذلك اثنتين وتسعين آية •

وبالتأمل فى هذه الجهات السبع التى انتظمها هذا البحث المبارك، نجد أنها أصلت أصلا تتسل منه كل الفروع ، ألا وهو ابليس اللعين أول من عصا ، فكل من عصى ربه فهو فرع لذلك الأصل اللعين•يوضح ذلك الجهتان : الأولى والثانية •

كذلك نجد ، من تمرق العصاة ووداهم مذموم بل واجب معاداة أعداء الله ليبقى بياض الحق أبلج ولينحسر ويندحر الباطل وينفصل• توضح ذلك الجهتان : الثالثة والرابعة •

كذلك نجد أنه لاعذر ولا شفاعة لمن يرتكب دقائق من الأذى والظلم، يمكنه ادراك خطرها بنفسه أو بمعونة غيره كما توضح ذلك الجهة الخامسة • وبذا تسد منافذ الأذى فى النفس البشرية •

كذلك نجد اراحة الفكر وهدأة البال فى تبيين سر ومدى هذه العداوات فى الجهة السادسة • وبث الأمل للمطيع وزرع الكمد للعاصى فى الجهة السابعة •

وبذا ، تتضافر الجهات السبع لتتكامل وتخرج مجتمعة لتنقذ من كل أذى وتوقع فى كل ود وألفة •

والآن ، وقبل التعامل مع النصوص القرآنية فى جهات هذا البحث، يحسن بنا أن نحدد دور البلاغة فى عرض هذا الموضوع القرآنى الكريم،فدور البلاغة كامن فى كونها تتحفز وتتهيأ بمقاييسها وضوابطها وأدوات تحسسها ، لتحدد تآزر اللفظ بدلالته — وجرسه — مع المعنى — بتركيبه وخصوصيته — فى كل جهة بل فى كل جزئية من جزئيات هذا البحث لابراز مكنون الآيات فى كل جهة للتعرف على كيفية تناسق وتناسب المقال مع المقام وأثر ذلك على المراد •

ومن هنا يكون كل عنوان دليلا ومؤشرا حيا على ما تحته من معان وأسرار ودلالات •

الجهة الأولى من البحث ، وهى الجهة التى تكشف عن سبب وأصل العداوة وأنه كامن فى العصيان والمخالفة التى تقع من أحد الطرفين ، والآيات التىتنتظم تلك الجهة سبع عشرة آية تتحرك على النحو التالى:

(أ) آية تعطى ملمحا مصورا للمعاناة النفسية والبدنية الواقعة أثناء العدى وتجاوز الحد • وهى الآية رقم ١ من العاديات •

(ب) آيتان تحكيان الوقوع والحدوث للعصيان والتمرد النفسى أولا ثم يتلو ذلك تساقط وتتابع الاعتداءات • وهما ٦١ من البقرة ، ١١٢ من آل عمران •

(جـ) ست آيات تحكى عن التمادى فى العصيان ودوام الغفلة اللذين يؤديان الى شيوع الفاحشة وارتكاب العظائم والآيات هى : ٦٢ ، ١٠٧ من المائدة ، ١٦٦ من الشعراء ، ٢٥ من ق ، ١٢ من القلم ١٢ من المطففين •

(د) ست آيات تحكى غضب الله وعقابه على أهل المعاصى وهى: ١٤ من النساء ، ١٤ من المائدة ، ٦٤ ، ٧٨ من المائدة كذلك ، ١٠ من التوبة ، ٧٤ من يونس •

(هـ) آيتان تحكيان جانب التحذير والحث على الطاعة بدلا من الوقوع فى حبائل الشيطان • وهما : ٩١ من المائدة ، ١ من الطلاق •

والآن الى الدرس والتأمل البلاغى فى كل من تلك الزوايا المتآزرة تحت مظلة هذه الجهة :

(أ) الآية رقم ١ من العاديات وهى قول الله تعالى « والعاديات ضبحا » •

يقول المفسرون « أقسم الله بخيل الغزاة تعدو فتضبح ، وانضبح صوت أنفاسها اذا عدون »(٤) فهذا قسم من الله تعالى يطوى داخله تلك الصورة المرئية والمسموعة الصادرة من خيل الغزاة عندما تباشر دورها فى أرض المعركة أو يطلب منها عدو فى غير معركة ، فهى تطوى

---

(٤) انظر الكشاف ص ٢٧٧ جـ ٤ ومثله فى أبى السعود ص ١٩٠ جـ ٩ والبيضاوى ومعه الشهاب ص ٣٩١ جـ ٨ •

الأرض طيا وتكاد تخرج من ظلها ، مع اصدار صوت يتردد مع أنفاسها يشيع الرجفة ويحكى الجهد المضنى مضافا الى ما تراه العين من جهد مضن مشخص فى سرعتها وطيرانها •

وصدق الشاعر الجاهلى فى تصويره ونقله لتلك التنازعات الداخلية للفرس ، مع تحركات مضـــنية ظاهرة فى جو من الجلبة والصخب يقول امرؤ القيس ناقلا صورة فرسه وهو يعدو جيئة وذهابا :

مكر مفر مقبل مدبر معـــا كجلمود صخر حطه السيل من عل

وتأمل لفظة « معا » وما فيها من دقة التصوير ورهافة الادراك ومنتهى السرعة التى لا يمكن فيها فصـــل الاقبـــال عن الادبار فكأنه يصنعهما فى عزمة واحدة • ثم تأمل كذلك المشـــبه به وقيده « جلمود صخر حطه السيل من عل » وما فيه من معنى الخفة ورقة الحركة مع سرعة تخطف الأبصار وتصيب الهدف وتملكه ، ثم تلاشى وزوال حرف الوصل بين تلك الأوصاف وكأنه ضاع تحت قدميه واندثر تحت حافره فلم يبق له أثر •

كل ذلك التصـــوير واخراج الدلالات يقتضى منـــا أن ندرك قدر العناء الذى يبذله العادى والمتجاوز والمعتدى • فليست المسألة سهلة بل هى تقوم على عناء مزدوج بين النفس والجســـد ، وعدم التعرض لها يقى ويحفظ ويهب الهدأة والسكون •

والانصات بتدبر للآيات التى تلى آيتنـــا هذه يدرك ذلك العنـــاء ويتصور ذلك الصخب والاثارة « والعاديات ضبحا • فالمغيرات صبحا • فأثرن به نقعا • فوسطن به جمعا » •

هذا مع الحيوان الأعجم فما بالك بالانسان الماكر والمخطط ؟ !

(ب) أما الآيتـــان اللتان تحكيان العصـــيان والتمرد الذى سبب الاعتداء وأوجد التجاوز للحدود وتوضحان أن العملية النفسية الرافضة للحق هى التى أوجدت المقاومة المحسوسة والتعرض المرئى والمســموع للحق وأهله فهما قول الله تعالى حكاية عن بنى اسرائيل «وضربت عليهم الذلة والمسكنة وباءوا بغضب من الله ذلك بأنهم كانوا يكفرون بآيات الله ويقتلون النبيين بغير الحق ذلك بما عصوا وكانوا يعتدون » ٦١ بقرة.

وقوله تعالى « ضربت عليهم الذلة أين ما ثقفوا الا بحبل من الله وحبل من الناس وباءوا بغضب من الله وضربت عليهم المسكنة ذلك بأنهم كانوا يكفرون بآيات الله ويقتلون الأنبيـــاء بغير حق ذلك بما عصـــوا وكانوا يعتدون » ١١٢ آل عمران .

فالآيتان الكريمتان تتحدثان عن بنى اسرائيل ويهمنا فيهما ومنهما اللمحة التى تؤكد لنا أن العصـــيان هو رأس العداوة ومنشـــؤها وأن التمرد النفسى تجـــاه الأحكام هو الذى يصـــنع ــ فيما بعد ــ أكبر الكبائر وأشنع الأحداث . ففى الآيتين قصة وحكاية بصـــيغة الماضى « كانوا » ــ لقطائعهم التى منها كفرهم بآيات الله وقتلهم الأنبياء وزاد من بشاعة تلك الصنائع مجيئها بصيغة المضارع الذى يحكى الصـــورة ويذيع الحدث ويشخص الواقعة حتى تحث السامع على ذمهم وتنفره من فعلهم وتحرك فيه حب الله وآله والداعين اليه « يكفرون ــ يقتلون» ثم ذلك الاحتيـــاط البلاغى والاحتراس البليغ فى قوله ــ بغير حق ــ الذى جىء به توكيدا وحثـــا على ذمهم على مر الدهور لأن الأنبيـــاء لا يصدر منهم ما يؤدى الى قتلهم .

ثم تذكر الآيتان منشأ هذه الشنائع وسبب تلك الكبائر فتقولان: « ذلك بما عصوا » أى هذا الجرم البعيد فى ذاته والمتناهى فى فظاعته وقع بسبب عصـــيانهم . وتمردهم النفسى وعـــدم تقبلهم لأمر الله .

والجمع بين العصيان والاعتداء فيه ملمح التمادى وازدواج المخالفة فالتمرد قائم وثابت والاعتداء مستمر ومتجدد بدلالة صيغة الماضى فى « عصوا » والمضارع فى « يعتدون » •

وعن الاشارة والمشار اليه وسبب وقوعه يقول الزمخشرى فى آية البقرة « ذلك — تكرار للاشارة ، بما عصوا — بسبب ارتكابهم أنواع المعاصى »(٥) ويضيف ملمحا يؤكد ما ذكرناه فيقول « ويجوز أن يشار بذلك الى الكفر وقتل الأنبياء على معنى : أن ذلك بسبب عصيانهم واعتدائهم لأنهم انهمكوا فيهما وغلوا حتى قست قلوبهم فجسروا على جحود الآيات وقتل الأنبياء ، أو ذلك الكفر والقتل مع ما عصوا »(٦) والعلامة القرطبى يذكر ما ذكره الزمخشرى مع زيادة توضيح لمعنى العصيان والاعتداء فيقول « ذلك — رد على الأول وتأكيد للاشارة اليه • والباء فى « بما » باء السبب ، قال الأخفش : أى بعصيانهم ، والعصيان خلاف الطاعة واعتصت النواة اذا اشتدت • والاعتداء تجاوز الحد فى كل شىء وعرف فى الظلم والمعاصى »(٧) •

أما آية آل عمران فنلتقط للزمخشرى عبارة رائعة يدعم فيها ما ذهبنا اليه من أن العصيان والتمرد يؤدى الى أوبخ وأشنع الأفعال وأن مآله كمآل الكفر سواء بسواء •

يقول الزمخشرى « ذلك بما عصوا — أى ذلك كائن بسبب عصيانهم لله واعتدائهم لحدوده ليعلم أن الكفر وحده ليس بسبب فى استحقاق سخط الله وأن سخط الله يستحق بركوب المعاصى كما يستحق بالكفر ونحوه »(٨) •

(٥،٦) الكشاف ص ٢٨٥ جـ ١ •
(٧) القرطبى ص ٤٣٢ جـ ١ •
(٨) الكشاف ص ٤٥٥ جـ ١ •

(ج) الآيات الست التى تحكى التمادى فى العصيان مما يتسبب عنه شيوع الفاحشة وتنوع الجرائم وخنق الفضائل فى نفوس الناشئة والآيات هى :

قول الله تعالى « وترى كثيرا منهم يسارعون فى الاثم والعدوان وأكلهم السحت لبئس ما كانوا يعملون » ٦٢ المائدة • وقوله «فان عثر على أنهما استحقا اثما فآخران يقومان مقامهما من الذين استحق عليهم الأوليان فيقسمان بالله لشهادتنا أحق من شهادتهما وما اعتدينا انا اذا لمن الظالمين » ١٠٧ مائدة •

وقوله تعالى « وتذرون ما خلق لكم ربكم من أزواجكم بل أنتم قوم عادون » ١٦٦ شعراء •

وقوله « مناع للخير معتد مريب » ٢٥ ق • وقوله « مناع للخير معتد أثيم » ١٢ من القلم • وقوله « وما يكذب به الا كل معتد أثيم » ١٢ المطففين •

والملاحظ على الآيات الست احتواؤها على الأساليب التى تلمح الى الامعان فى المعصية وخلع ثوب الحياء لدى المعتدى مما يجعل بيئته تنضح بفعله الخسيس وصنيعه القبيح • وذلك فى كل لون داخل كل آية • فالآية ٦٢ من المائدة تحوى لفظة « كثيرا منهم » ، «يسارعون» « لبئس ما كانوا يعملون » فهى تخبر بأن كثرة من القوم والكثرة هنا تعنى أغلبية فاسدة مارقه ، ثم لفظة « يسارعون فى الاثم » بصيغة المضارع من جهة وبمادته المشتقة من السرعة من جهة أخرى ، امعانا فى ذمهم ثم ابتلاعهم للسحت والحرام مما جعلهم تقبح أفعالهم وتذم « لبئس ما كانوا يعملون » هكذا بأسلوب الذم المؤكد • والجامع بين الصيغتين : الماضى والمضارع اشعارا باستمرار الفعل ليستمر تقبيحه والتشنيع على صاحبه •

يقول أبو السعود « وأكلهم السحت ــ أى الحرام ، وخصه بالذكر مع اندراجه فى الاثم للمبالغة فى التقبيح • والجمع بين صيغتى الماضى والمستقبل فى « لبئس ما كانوا يعملون » للدلالة على الاستمرار(٩) •

ويبلج العلامة القرطبى المراد بتلك الصنائع فيقول « وترى كثيرا منهم ــ يعنى اليهود ، يسارعون فى الاثم والعدوان ــ أى يسابقون فى المعاصى والظلم »(١٠) بينما يقف شيخ المفسرين الزمخشرى عند كلمتى : الاثم والمسارعة فيقول « الاثم : الكذب بدليل قوله تعالى : عن قولهم الاثم وقيل كلمة الشرك والمسارعة فى الشىء : الشروع فيه بسرعة »(١١) والآية ١٠٧ من المائدة تقرر فى أسلوب مكين أن تجاوز الحد والحق فى الشهادة هو والظلم سواء بل يغمس صاحبه غمسا فى الظلم والظالمين بدلالة « انا اذا لمن الظالمين » وفى ذلك تبرئة من الظلم وأهله من جهة وذم له ولأهله•يقول أبو حيان « وما اعتدينا وما زدنا على الحد • انا اذا لمن الظالمين ــ ختما بهذه الجملة تبرّيا من الظلم واستقباحا له » ويضيف : « وناسب الظلم هنا لقولهما وما اعتدينا فالاعتداء والظلم متقاربان »(١٢) •

أما آية الشعراء فهى تحكى عن خسيسة ينفر منها كل ذى طبع سليم ومزاج سوى ألا وهى شنيعة اللواط وفيها يتجاوز ويعتدى على ما خصصه الله الى ما ترغب فيه نفوسهم النزقه وأمزجتهم العفنة فيتركون الأزواج الى الرجال ويدعون النساء ويلهثون حول الذكور ولذلك جاء تركيب الآية ناعيا عليهم خيبتهم ومسفها عقولهم ومذكرا

---

(٩) أبو السعود ص ٥٧ جـ ٣ •
(١٠) القرطبى ص ٢٣٧ جـ ٦ •
(١١) الكشاف ص ٦٢٦ جـ ١ •
(١٢) أبو حيان ص ٤٧/٤٦ مجلد رقم ٤ •

لغيرهم ما أمدهم به ربهم من أزواج من أنفسهم فيها السكن والود والأنس واللذة التى تستروح بها كل نفس سوية وعقل سليم فكلمة « لكم » ، « ربكم » فيهما تخصيص يركز الكلام والخطاب على القوم ليثير فيهم ذرة من حياء ثم كلمة « ازواجكم » مدعاة للمراجعة والمعاودة فالعود أحمد من التمادى فى الوسخ والنجس ، ثم يأتى الخبر المصفى بكلمة « بل » وبأسلوب القصر والتخصيص « أنتم » وبالتنكير المنبىء عن القبح والتحقير « قوم » وبصيغة واشتقاق كلمة «عادون» «بل أنتم قوم عادون » اخبار مؤكد ومخصص وموطىء لانزال أفظع العتاب وأشده وقد نزل .

ومما قاله الزمخشرى فى الآية « العادى المتعدى فى ظلمه المتجاوز فيه الحد »(١٣) .

ومما قاله أبو السعود « بل أنتم قوم عادون — متعدون متجاوزون الحد فى جميع المعاصى وهذا من جملتها . وقيل متجاوزون عن حد الشهوة حيث زادوا على سائر الناس بل الحيوانات »(١٤) .

ولنستمع الى صاحب الظلال وهو يقول كلاما يفيض أدبا وعلما « والخطيئة المنكرة التى عرف بها قوم لوط هى الشذوذ الجنسى باتيان الذكور وترك النساء ، وهو انحراف فى الفطرة شنيع . فقد برأ الله الذكر والأنثى وفطر كلا منهما على الميل الى صاحبه لتحقيق حكمته ومشيئته فى امتداد الحياة عن طريق النسل الذى يتم باجتماع الذكر والأنثى فأما اتيان الذكور فلا يرمى الى هدف ولا يحقق غاية ولا يتمشى مع فطرة هذا الكون وقانونه ، ومن ثم لم يكن بد أن يرجعوا عن هذا

---

(١٣) ص ١٢٤ جـ ٣ الكشاف .

(١٤) ص ٢٦٠ جـ ٦ من أبى السعود .

الانحـــراف أو أن يهلـــكوا لخروجهـــم من ركب الحيـــاة ومن موكب الفطرة »(١٥) •

أما الآيات الثلاث : ٢٥ من ق ، ١٢ من القلم ، ١٢ من المطففين فهى تلتقى فى كون المعتدى أثيما أو مريبا ومناعا للخير ومكذبا بيوم الدين ولا شك أن الاعتداء ذنب وأذى وشبهة للاثم والذنب والاعتداء فيه ريبة وشك وجنوح الى الأذى وبعد عن السلامة أما ان اجتمع مع الاعتداء مبالغة فى منع الخير عن أهله فتلك اعتداءات مركبة ومضاعفة • أما يوم الدين يوم الوعد الحق فلا تكذيب له ولا يوجد من يكذب به الا صنف واحد من الناس هو المعتدى الأثيم هكذا بأسلوب القصر والتخصيص « وما يكذب به الا كل معتد أثيم » •

فكأن الاعتداء هنا نسج حوله ألوانا تزدرى ويتستر من سماعها قبل فعلها • يقـــول الزمخشرى فى آية ق « مناع للخير ـــ كثير المنع للمال على حقوقه • معتد : ظالم متخط للحق ، مريب : شـــاك فى الله وفى دينه •

وفى آية القـــلم « أثيم ـــ كثير الآثام »(١٧) ويوســـع العـــلامة البيضاوى المعنى فيقول فى آية المطففين « معتد : متجاوز عن النظر غال فى التقليد • أثيم ـــ منهمك فى الشهوات المخدجة بحيث أشـــغلته عما وراءها وحملته على الانكار لمـــا عداها »(١٨) •

ومن هذا العرض يتأكد لنا أن الآيات الست قد جمعت أصـــنافا عدة من المعاصى التى تمادى فيها المعتدون حتى استوجبوا عقـــاب الله

---

(١٥) الظلال ص ٢٦١٣ جـ١٩ •
(١٦) الكشاف ص ٨ جـ ٤ •
(١٧) الكشاف ص ١٤٢ جـ ٤ •
(١٨) الشهاب على البيضاوى ص ٣٣٦ جـ ٨ •

تعالى أثر كذبهم أو شركهم بالله وأثر تجاوزهم فى الشهادة وتجاوزهم فى حد الشهوة ومنعهم الخير عن أهله وتكذيب لما هو ثابت حق .

(د) والآيات الست التى تحكى غضب الله وعقابه لأهل المعاصى والاعتداءات فهى قوله تعالى « ومن يعص الله ورسوله ويتعد حدوده يدخله نارا خالدا فيها وله عذاب مهين » ١٤ من النساء ، قوله « ومن الذين قالوا انا نصارى أخذنا ميثاقهم فنسوا حظا مما ذكروا به فأغرينا بينهم العداوة والبغضاء الى يوم القيامة وسوف ينبئهم الله بما كانوا يصنعون » ١٤ من المائدة ، قوله تعالى « وقالت اليهود يد الله مغلولة غلت أيديهم ولعنوا بما قالوا بل يداه مبسوطتان ينفق كيف يشاء وليزيدن كثيرا منهم ما أنزل اليك من ربك طغيانا وكفرا وألقينا بينهم العداوة والبغضاء الى يوم القيامة كلما أوقدوا نارا للحرب أطفأها الله ويسعون فى الأرض فسادا والله لا يحب المفسدين » ٦٤ من المائدة .

قوله تعالى « لعن الذين كفروا من بنى اسرائيل على لسان داوود وعيسى ابن مريم ذلك بما عصوا وكانوا يعتدون » ٧٨ من المائدة .

قوله تعالى « لا يرقبون فى مؤمن الا ولا ذمة وأولئك هم المعتدون » ١٠ التوبة .

قوله تعالى « ثم بعثنا من بعده رسلا الى قومهم فجاؤهم بالبينات فما كانوا ليؤمنوا بما كذبوا به من قبل كذلك نطبع على قلوب المعتدين» ٧٤ من يونس . صدق الله العظيم

والآيات الست تلتقى فى أسلوبها الخبرى الثابت ليتدم المآل والنهاية الحتمية لكل من يتجاوز حدوده مع ربه ولا يتوب من قريب .

وشملت الناس جميعا وعلى مدى الأيام كما خصت اليهود والنصارى والمشركين ببعض من صنوف التجاوز لتحذر أمثالهم وغيرهم

كما أنها غطت فى عقابها ، الدنيا ــ عداوة وبغضاء ــ والآخرة : عذابا مهينا خالدا كما أنها كشفت عن قصدهم ونيتهم ــ بالتعبير بصيغة الماضى ــ مع استمرارهم وتماديهم فى الفعل الشنيع مع ربهم وعباده الصالحين ــ بالتعبير بصيغة المضارع •

١ ــ فآية النساء ١٤ ، يتناسق عجزها مع صدرها : فتهاون واغترار من العاصى وتجاوز قبيح منه يتلاقى مع تشديد وتغليظ فى العقوبة وزاد من بلاغتها وحسن التعبير فيها خروجها فى أسلوب شرطى حاسم ومتجانس ومتآزر : شرطا وجوابا ، فعلا وجزاء ، مع تنكير لفظة « نارا » ونعتها بمادة تفيد الاستمرارية والبقاء « خالدا » وكذا تنكير لفظة « عذاب » ووصفها بمادة تعطى التهوين والسخرية والتحقير « مهين » • يقول فى الآية أبو حيان « وناسب الختم بالعذاب المهين لأن العاصى المتعدى للحدود برز فى صورة من اغتر وتجاسر على معصية الله » ويجلى العلامة دقة الوصف بالمهين وأثره على نفس المهان فيقول: « وقد تقل المبالاة بالشدائد ما لم ينضم اليها الهوان ولهذا قالوا : المنية ولا الدنية »(١٩) •

٢ ــ والآية ١٤ من المائدة : تحكى صنيع السمع النصارى وتجاوزهم واعتداءهم على عهد الله ونسيانهم له فكان العقاب بالصاق واستدامة التناحر والتباغض مما يجعل الحياة ثقيلة ممجوجة معكرة • يكشف عن ذلك لفظة « أغرينا » بمادتها التى تفيد الالصاق وعدم الفكاك وباسنادها الى ضمير العظمة مما يعنى قوة الصنع وشدة البأس ثم كلمة « بينهم » المفيدة للبينية والتحرك بتحركهم والسكون بسكونهم وعدم تجاوزها منهم الى غيرهم بل هى فيهم ضربة لازب بدلالة « الى يوم القيامة » كل ذلك غير توبيخهم يوم القيامة وسؤالهم واخبارهم.

---

(١٩) أبو حيان ص ١٩٢ مجلد ٣ •

بصنيعهم القبيح • ومما قاله الكشاف : « فأغرينا : ألصقنا وألزمنا من غرى بالشيء اذ الزمه ولصق به وأغراه غيره • ومنه الغراء الذى يلصق به »(٢٠) بينما يلمح العلامة الألوسى بلاغة الغائية فى قوله « الى يوم القيامة » علاوة على الوعيد الشديد فى قوله « وسوف ••• الخ »•

يقول الألوسى « الى يوم القيامة — اما غاية للاغراء أو للعداوة والبغضاء أى يتعادون ويتباغضون الى يوم القيامة حسبما تقتضيه أهواؤهم المختلفة وآراؤهم الزائغة» ويضيف : «وسوف ••• بما كانوا يصنعون — الكلام مسوق للوعيد الشديد بالجزاء والعقاب • وسوفا — لتأكيد الوعيد »(٢١) • بينما يجلى صاحب الظلال نكتة التعبير فى قوله تعالى : « ومن الذين قالوا انا نصارى » ، فيقول « ودلالة هذا التعبير أنهم قالوها دعوى ولم يحققوها فى حياتهم واقعا • ولقد كان أساس هذا الميثاق هو توحيد الله وهنا كانت نقطة الانحراف الأصلية فى خط النصرانية التاريخى »(٢٢) •

٣ — وآية ٦٤ تخص اليهود وهى شبيهة بالسابقة ساعة أن يكون الضمير فى « بينهم » خاصا باليهود ، لأنه قد يكون عائدا على اليهود والنصارى معا لأنه قد جرى ذكرهم فى قوله : لا تتخذوا اليهود والنصارى ولشمول قوله : يا أهل الكتاب ، للفريقين ، وفرقوا بين العداوة والبغضاء فذكر الألوسى أن العداوة أخص لأن كل عدو مبغض وقد يبغض من ليس بعدو »(٢٣) •

وان كان بين النصارى اغراء والصاق للعداوة والبغضاء فبينهم

---

(٢٠) الكشاف ٦٠١ جـ ١ •
(٢١) الألوسى ص ٩٦ جـ ٦ •
(٢٢) الظلال ص ٨٦٠ جـ ٦ ••
(٢٣) الألوسى ص ١٨٢ ، ١٨٣ جـ ٦ •

وبين اليهود القاء أو بين اليهود خاصة والالقاء والاغراء ماداما مسندين الى ضمير العظمة فلا فرق بين قوتهما وأثرهما فى النكال والتشديدمع مخالفتهما فى الظل لكل لفظه فأغرى تعطى ظلا كله تماسك والتصـــاق ، وألقى تعطى ظلا كله تصويب واصابة وانزال والكل يخضـــع للمشيئة والتوبة من المتجاوزين والرفع والاغاثة من الله تعالى .

٤ ــ والآية ٧٨ من المائدة تحكى ما يحيق بالمتجاوزين واالناقضين للعهود والالتزامات ، من لعن ومسخ واهانة يقول الزمخشرى «ذلك بما عصوا ــ أى لم يكن ذلك اللعن الشنيع الذى كان سبب المسخ الا لأجل المعصية والاعتداء لا لشىء آخر ، ثم فسر المعصية والاعتـــداء بقوله : كانوا لا يتناهون عن منكر فعلوه »(٢٤) والتعبير بالاشـــارة للبعيد ، عن اللعن السابق ، امعان فى تفظيعه وشدة وقعه وخطره .

٥ ــ والآية ١٠ من التوبة تصم الناقضين للعهود وتسمهم بالاعتداء المتناهى وكأنهم هم ــ لا غيرهم ــ البالغون فى الاعتداء حدا لا يقارب بدلالة أسلوب القصر واسم الاشارة للبعيـــد « وأولئك هم المعتدون » وجملمن هذا الحكم البليغ اتيانه عقب حكاية جريرتهم التى تمـــادوا فيها « لا يرقبون فى مؤمن الا ولاذمه ــ وذلك بدلالة الاستمرارية المنفى عنها الخير » لا يرقبون .

يقول الزمخشرى « هم المعتدون ــ المجاوزون الغاية فى الظلم والشرارة »(٢٥) .

ويضيف العلامة الرازى قائلا : « والمراد من هذه الآية ذم أولئك

---

(٢٤) الكشاف ص ٦٣٦ ج ١ والقرطبى ص ٢٥٣ ج ٦ .
(٢٥) الكشاف ص ١٧٦ ج ٢ . والألوسى ص ٥٧ ج ١٠ .

اليهود وتجاوزهم فى دين الله وما يوجبه العقد والعهد وفى ذلك نهاية الذم »(٢٦) .

٦ ــ والآية ٧٤ من يونس تحكى استدامة الطبع والختم على القلوب عند استدامة الغفلة والتجاوز عن دين الله وزاد من تصوير العناد الشديد للقوم تلك الصورة الكائنة الملفوفة فى تعبير تشبيهى بليغ « كذلك نطبع » فالطبع كناية عن عنادهم ولجاجهم لأن الخذلان يتبعه . والمعنى مثل ذلك الطبع المحكم نطبع(٢٧) .

(هـ) الآيتان الحاكيتان جانب التحذير والحث على الطاعة ، وذلك يكشف عن كمال لطف الله بعباده وحبه فى أن يتجنبوا الضرر والزلل ولو سيقت هذه التحذيرات وسط جو من التقرير للمعاصى وألوانها والتجاوزات وآثامها من جهة ، ثم العقاب والجزاء من جهة أخرى .

والآيتان هما : ٩١ من المائدة ، ١ من الطلاق . وآية المائدة تقول : « انما يريد الشيطان أن يوقع بينكم العداوة والبغضاء فى الخمر والميسر ويصدكم عن ذكر الله وعن الصلاة فهل أنتم منتهون » .

فهى تعرض التحذير والحث على الطاعة فى أسلوب قصرى كاشف يقع فيه المقصور عليه متعدد اللون والخطر ومصورا فيه الحدث « يوقع ويصد » مع شناعة المعمول لكل فعل « العداوة والبغضاء ــ ذكر الله والصلاة » .

ثم تختم الآية باسلوب الانشاء بالاستفهام المجازى الذى معناه الحث والأمر لفعل ما هو منج ونافع . كما أن الآية فيها تلويح

---

(٢٦) الرازى ص ٢٣٠ جـ ١٥ .

(٢٧) راجع ما ذكره الزمخشرى ص٢٤٦ جـ٢ والألوسى ص ٥٧جـ١٠

بأن الغفلة عن الله يلازمها تواجد المعكرات وبروز العداوات والبغضاء وكأنها رد سريع وجزاء مؤقت على الغفلة فليحذر المخالفون •

يقول الزمخشرى « ذكر ما ينتج منهما من الوبال وهو وقوع التعادى والتباغض من أصحاب الخمر والقمر وما يؤديان اليه من الصد عن ذكر الله وعن مراعاة أوقات الصلاة »(٢٨) بينما يقف الألوسى عند عجز الآية وبلاغتها فيقول « فهل أنتم منتهون — اعادة للحث على الانتهاء بصيغة الاستفهام الانكارى مع الجملة الاسمية مرتبا على ما تقدم من أصناف الصوارف ايذانا بأن الأمر فى الردع والمنع قد بلغ الغاية »(٢٩) •

وآية الطلاق « يا أيها النبى اذا طلقتم النساء ••• وتلك حدود الله ومن يتعد حدود الله فقد ظلم نفسه » • فبعد النداء الرقيق الندى للرسول الأكرم ولأمته فى شخصه جاء الشرط المبلج والموضح للطلاق الموافق للسنة والمرضى للرب ، ثم جاء التحذير لمن يتعدى ذلك البيان ويتجاوزه وباسلوب شرطى كذلك مقرون الجواب فيه بالفاء « ومن يتعد حدود الله فقد ظلم نفسه » ومتلوة بحرف التوكيد والتحقيق « قد » بدخولها على الماضى ، زيادة على تجنب المخالفة ويضاف الى بلاغة الاسلوب ايراد اسم الاشارة « تلك » تعبيرا عن بعد ونهاية الضرر الناتج من تجاوز ما هو بعيد القدر رفيع الشأن وهى حدود الله المشار اليها ، واضافة الحدود الى لفظ الجلالة يزيد الأمر حذرا وخشية • يقول أبو السعود « تلك — اشارة الى ما ذكر من الأحكام وما فى اسم الاشارة من معنى البعد مع قرب العهد بالمشار اليه للايذان بعلو درجتها وبعد منزلتها • والاظهار فى حيز الاضمار

---

(٢٨) الكشاف ص ٦٤٢ جـ ١ •
(٢٩) الألوسى ص ١٧/١٦ جـ ٧ •

لتهويل أمر التعدى والاشعار بعلة الحكم فى قوله « فقد ظلم نفسه » أى أضر بها(٣٠) •

الجهة الثانية من البحث : عداوة الشيطان لآدم وذريته • وتنتظم ست عشرة آية ، ست منها تحكى عداوته لآدم عليه السلام ، وثلاث توضح أنه مصدر العداوات بين النـــاس ، وسبع تحكى ارشـــاد الله لعباده وتوجيههم حتى لا يقعوا فى شباكه وكمائنه •

(أ) والآيات الست التى تحكى عداوته لآدم عليه السلام هى :

٣٦ من البقرة ، ٢٢ من الأعـــراف ، ٢٤ من الأعراف ، ٥٠ من الكهف ، ١١٧ من طه ، ١٢٣ من طه • وبالنظر فى نصوصها نجد أن الآيات الست يمكن ترتيبها على النحو التالى :

١ ــ آية الكهف وهى الحاكية لبدء وانطلاق الحقد من ابليس على آدم عليه السلام عقب تكوينه وخلقه وأمر الله بالسجود له وعصيان وفسوق ابليس وخروجه من مجموع الساجدين يقول الله تعـــالى : « واذ قلنا للملائكة اسجدوا لآدم فسجدوا الا ابليس كان من الجن ففسق عن أمر ربه أفتتخذونه وذريته أولياء من دونى وهم لكم عدو بئس للظالمين بدلا » ٥٠ كهف •

فالآية تقرر عداوة الشيطان الثابتة لبنى آدم « وهم لكم عدو » هكذا باسمية الجملة وبالتخصيص للطرفين المتعاديين : بنـــو ابليس وبنو آدم وبصريح اللفظة « عدو » وذلك اثر تقديمها لبيـــان سبب تلك العـــداوة من كمد وحسد وقـــع فى نفس ابليس لما رأى تـــكريم الله لآدم •

---

(٣٠) أبو السعود ص ٢٦٠/٢٦١ جـ ٨ •

ثم تختم الآية بهذا الاستفهام الانكارى الذى يوبخ الغافلين ويذم من اتخذوه من دون الله « افتتخذرنه ... بئس ... » .

يقول الزمخشرى « ومعنى فسق عن أمر ربه : خرج عما أمره به ربه من السجود أو صار فاسقا كافرا بسبب أمر ربه الذى هو قوله : « اسجدوا لآدم » ويضيف : « أفتتخذونه — الهمزة للانكار والتعجيب كأنه قيل أعقيب ما وجد منه تتخذونه »(٣١) ولفظة « عدو » بمعنى اعداء فهى اسم جنس والاستفهام فيه توبيخ لمن يتخذونه وذريته من دون الله(٣٢) .

بينما يرى أبو حيان أن حرف الجر « عن » وارد بمعنى الباء ليلتقى المعنى بمراد الله ووقوع كل شىء وفق ذلك(٣٣) .

٢ ، ٣ — أما آية ٢٢ من الأعراف ، ٣٦ من البقرة فيحكيان أمرا واحدا هو حرص هذا العدو على ايقاع الخسران بآدم فغره وأزاله عن النعيم فى الجنة ولم يسترح حتى أخرجه منها ولو كان الثمن أن يخرج معه فليهلك بشرط هلاك المحسود .

تقول آية الأعراف « فدلاهما بغرور ... وناداهما ربهما ألم أنهكما عن تلكما الشجرة وأقل لكما ان الشيطان لكما عدو مبين » وتقول آية البقرة « فأزلهما الشيطان عنها فأخرجهما مما كانا فيه ... بعضكم لبعض عدو ... » الخ الآية .

فالآيتان تكشفان عن حرصه — لعنه الله — وأسلوبه الماكر حتى حقق رغبته وأخرج آدم وزوجه .

---

(٣١) الكشاف ص ٤٨٨ جـ ٢ .
(٣٢) انظر ما قاله القرطبى فى الآية ص ٤٢٠ جـ ١٠ .
(٣٣) انظر ما قاله أبو حيان ص ١٣٦ جـ ٦ .

ومما قاله الزمخشرى فى آية البقـرة « الضمير فى « عنهـا » للشجرة أو الجنـة • ومعنى فأزلهما أذهبهما عنها وأبعـدهما وقرىء فأزالهما مما كانا فيه من النعيم والكرامة(٣٤) •

وهذه خسارة كبيرة أراحت ابليس وأسعدته ثم وقع التبـاغض والتعادى بينه وبين بنى آدم المحسود ، يقول الزمخشرى « ومعنى : بعضكم لبعض عدو » ما عليه الناس من التعادى والتباغى وتضـليل بعضهم لبعض والهبوط والنزول الى الأرض »(٣٥) •

وعن الغرور الوارد فى آية الأعراف يقول الزمخشرى « فدلاهما بغرور — فنزلهما الى الأكل من الشجرة بما غرهما به من القسم بالله » ويضيف وقوله تعالى « ألم أنهكما — عتاب من الله وتوبيخ وتنبيـه على الخطأ حيث لم يتحذرا ما حذرهما الله منه »(٣٦) • ومن روائع ما ذكره الرازى فى آية البقرة أن قوله تعالى « فأزلهما الشيطان عنها — من الزلل — يكون الانسان ثابت القدم على الشىء فينزل عنه ويصير متحولا • أو من الزوال عن المكان أى التحويل وقيل المعنى استزلهما فهو من قولك زل فى دينه اذا أخطأ »(٣٧) وكلها تأويلات وتقليبـات تحكى حيل وألاعيب ابليس وحرصه الشديد وحقده الأسود فى النيل من آدم وقد كان •

وكذلك يلمح الرازى دلالة لفظه « فدلاهما » من آية الأعراف وأن لهما أصلين هما : التدلية وأريد بها الطمع فيما لا فائدة فيه • والدل

(٣٤،٣٥) الكشاف ص ٢٧٤ جـ ١ •
(٣٦) الكشاف ص ٧٣ جـ ٢ •
(٣٧) الرازى ص ٦ جـ ٣ •

والدالة وهى الجرأة أى أجرأهما على أكل الشـــجرة(٣٨) • وهذا كله يكشف ما ذكرناه من شديد الحرص ودقيق الحيل •

والعلامة أبو السعود يدفع شبهة قد ترد حول أبى البشر فيقول « وهذه الآيات مشعرة بأنه عليه السلام لم يؤمر بسكنى الجنة على وجه الخلود بل على وجه التكرمة والتشريف لما قلد من خلافة الأرض الى حين البعث اليها »(٣٩) •

٤ ، ٥ ، ٦ : وهى آيات ٢٤ من الأعراف ، ١١٧ ، ١٢٣ من طه وثلاثتها تحكى العداوة التى قررها الله وعرفها لآدم عليه الســـلام تجاه ابليس اللعين فتقول آية الأعراف « قال اهبطوا بعضكم لبعض عدو ولكم فى الأرض مستقر ومتاع الى حين » وتقول آيتا طه « فقلنا يا آدم ان هذا عدو لك ولزوجك فلا يخرجنكما من الجنة فتشقى » ، « قال اهبطا منها جميعا بعضكم لبعض عدو •• » وملاحظ أن القائل هو الله تعالى والمخاطب كما يقول البيضاوى : « الخطاب لآدم وحواء أو له ولابليس ولما كانا أصلى الذرية خاطبهما مخاطبتهم فقال بعضكم لبعض عدو »(٤٠) ويلمح الزمخشرى سبب اسناد الاخـــراج لآدم وحواء والشقاء لآدم وحده فيقول « وانما أسند الى آدم وحده فعل الشقاء دون حواء بعد اشراكهما فى الخروج لأن فى ضمن شقاء الرجل وهو قيم أهله وأميرهم شقاءهم كما أن فى ضمن سعادته ســـعادتهم فاختصر الكلام » ويضيف « أو أريد بالشقاء التعب فى طلب القوت وذلك معصوب برأس الرجل وهو راجع اليه »(٤١) •

---

(٣٨) انظر ما قاله الرازى ص ٤٥/٤٩ جـ ١٤ •
(٣٩) أبو السعود ص ٩١ جـ ١ •
(٤٠) حاشية الشهاب على البيضاوى ص ٢٣٢ جـ ٦ •
(٤١) الكشاف ص ٥٥٥ جـ ٢ •

بينما يذكر العلامة الألوسى سبب تلك العداوة بين آدم وابليس فيقول « واختلف فى سبب العداوة فقيل مجرد الحسد وهو ــ لعنة الله ولعن أتباعه ــ أول من حسد ــ وقيل كونه شيخا جاهلا وكون آدم عليه السلام شابا عالما والشيخ الجاهل يكون أبدا عدوا للشاب العالم بل الجاهل مطلقا عدو للعالم كذلك • وقيل تنافى الأصلين فان اللعين خلق من نار وآدم من طين وحواء منه »(٤٢) •

وملاحظ أن تقرير العداوة كانت من الله لآدم حين دخل الجنة وحين خرج منها ليشمل التحذير آدم وذريته تعميما للفائدة وتقليلا للخسارة الناجمة من مصادقة هذا العدو اللدود • وخرجت فى أسلوب خبرى مؤكد بالاسمية تارة وبالاسمية وحرف التوكيد تارة أخرى •

(ب) أما الآيات التى تحكى أن الشيطان هو مصدر العداوات مع بنى البشر فهى الآية ٥ من يوسف ، ٧٧ من الشعراء ، ١٥ من القصص • وكلها تقريرات محكية على لسان نبى من أنبياء الله ، هو يعقوب عليه السلام وابراهيم وموسى عليهما السلام •

فتقول آية يوسف « قال يا بنى لا تقصص رؤياك على اخوتك فيكيدوا لك كيدا ان الشيطان للانسان عدو مبين » •

وآية الشعراء « فانهم عدو لى الا رب العالمين » وآية القصص « فوكزه موسى فقضى عليه قال هذا من عمل الشيطان انه عدو مضل مبين » •

فيعقوب عليه السلام ينهى ولده يوسف عن قص رؤياه أمام اخوته حتى لا يتخذها الشيطان فرصة للايقاع بينهم فيضر بذلك يوسف

---

(٤٢) الألوسى ص ٢٧٠ ج ١٦ •

عليه السلام وابراهيم عليه السلام يقرر ويؤكد عداوة الأصنام والشيطان له فى حين ولاية الله وعنايته معه لا تتركه • وموسى عليه السلام بعد أن يكز القبطى فيموت ينتبه الى أن ذلك من عمل الشيطان الذى أغضبه وأخرجه عن وعيه فضرب الرجل فمات • فكأن — بذلك — كل الحزازات والعداوات عرفها الأنبياء أنها آتية بسبب حيل الشيطان ومداخله •

يقول الزمخشرى فى آية يوسف « عدو مبين — ظاهر العداوة ، فهو يحمل على الكيد والمكر وكل شر ليورط من يحمله ولا يؤمن أن يحملهم على مثله »(٤٣) •

ويجلى خطر حمل الشيطان لأخوة يوسف ما قاله القرطبى : « فيكيدوا لك كيدا — أى يحتالوا فى هلاكك »(٤٤) ولا يخفى هذا التهويل المنبعث من الفعل ومصدره وتنكير المصدر • ويلمح أبو حيان تجويز تنبيه المسلم لأخيه المسلم ممن يخافه ويحذره ولا يكون داخلا فى باب الغيبة(٤٥) •

وآية الشعراء تخرج فى صورة تعريضية بديعة ، فبدلا من أن يقول ابراهيم عليه السلام لقومه المقلدين لآبائهم فى عبادة الأصنام : فانهم عدو لكم الا رب العالمين ، قال : فانهم عدو لى • لأن التعريض يبلغ للمنصوح ما لا يبلغه التصريح لأنه يتأمل فيه فربما قاده التأمل الى القبول • وعبادة الأصنام ليس لها من مغر وحاث عليها الا عدو

---

(٤٣) الكشاف ص ٣٠٣ ج ٢ •

(٤٤) القرطبى ص ١٢٢ ج ٩ •

(٤٥) انظر أبا حيان ص ٢٨٠ مجلد رقم ٥ •

الانسان الأول وهو الشيطان والاستثناء منقطع كأنه قال : ولكن رب العالمين »(٤٦) .

والعلامة الألوسى يذكر أن اطلاق العدو على الأصنام من باب التشبيه البليغ أو من المجاز العقلى باطلاق وصف السبب على المسبب والأول أظهر . أما من قال ان الكلام على القلب والأصل فانى عدو لهم ، ليس بشىء(٤٧) يقول الزمخشرى « فان قلت لم جعل قتل الكافر من عمل الشيطان وسماه ظلما لنفسه واستغفر منه ؟ قلت لأنه قتله قبل أن يؤذن له »(٤٨) .

وأما آية القصص فنجد أنها تحكى على لسان نبى الله موسى،أن كل عمل وكل عداوة ومعصية هى عمل شيطانى صرف .

(ج) والآيات السبع التى تحكى ارشاد الله لعباده وتوجيههم بعيدا عن مكائد وحيل الشيطان،فهى : ١٦٨،٢٠٨،البقرة ، ١٤٢ الأنعام ، ٥٣ الاسراء ، ٦ فاطر ، ٦٠ يس ، ٦٢ الزخرف .

والآيات السبع تلتقى فى نغمة التوجيه والانقاذ والبعد عن سعير الشيطان ونهايته السيئة .

ويلاحظ على خمس منها جريان النصيحة فى اسلوب طلبى يحوى نهيا مقدما يعقبه توكيد يعلل ويحث على الالتزام بطلب الترك .

وآيتان تحوى أمرا وتوكيدا معللا وحاثا على الالتزام بالفعل المأمر به . هذا بالاضافة الى صدر وعجز كل آية المتضافرين مع ما فى داخلها .

---

(٤٦) راجع ما قاله الزمخشرى ص ١١٦ ج ٣ .

(٤٧) راجع ذلك فى الألوسى ص ٩٤ ج ١٩ .

(٤٨) الكشاف ص ١٦٨ ج ٣ .

والآيات الخمس هى :

قول الله تعالى « يا أيها الناس كلوا مما فى الأرض حلالا طيبا ولا تتبعوا خطوات الشيطان انه لكم عدو مبين » ١٦٨ البقرة ، قوله تعالى : « يا أيها الذين آمنوا ادخلوا فى السلم كافة ولا تتبعوا خطوات الشيطان انه لكم عدو مبين » ٢٠٨ البقرة ، قوله تعالى : « ومن الأنعام حمولة وفرشا كلوا مما رزقكم الله ولا تتبعوا خطوات الشيطان انه لكم عدو مبين » ١٤٢ الأنعام ، قوله تعالى « ألم أعهد اليكم يا بنى آدم ألا تعبدوا الشيطان انه لكم عدو مبين » ٦٠ يس ، قوله تعالى « ولا يصدنكم الشيطان انه لكم عدو مبين » ٦٢ الزخرف .

والآيات الخمس تلتقى فى النهى وهو طلب ترك أتباع الشيطان متلوا ذلك النهى بالعلة المؤكدة وهى أنه عدو ظاهر العداوة فلا يغيب ذلك عن عاقل ، وصياغة النهى متلوا بالتوكيد المعلل فى الآيات الخمس هى « ولا تتبعوا خطوات ... انه لكم عدو مبين » فى ثلاث ، قوله « أن لا تعبدو ... انه لكم عدو مبين » فى واحدة ، قوله « ولا يصدونكم ... انه لكم عدو مبين » فى واحدة .

والتلازم فى صور النهى الثلاث يتضح من استدامة الأتباع ودوام المطاوعة حتى تتحول الى صورة من صور العبادة التى تعمى صاحبها عما سواها وتصده عن كل ما عداها ثم تلاقى الآيات الخمس فى العلة التى لا تتغير « انه لكم عدو مبين » هكذا مؤكدة ومخصصة ببنى آدم ومجلاة مكشوفة بمادتى العداوة والابانة حتى تنمحى كل شبهة ولا يبقى مجال لشك أو رتبة .

ويشير الزمخشرى الى معنى الاتباع والتأثر من لفظة الخطوات فيقول « والخطوة المرة من الخطو ، والخطوة ما بين قدمى الخاطى ،

يقال اتبع خطواته ووطىء على عقبه اذا اقتدى به واستن بسنته»(٤٩) فالنهى من الله عن ذلك تبصير ولطف بعباده •

ويوجه الأنظار أبو السعود الى التعليل للنهى حتى لا تبقى شبهة فيقول « انه لكم عدو مبين ــ تعليل للنهى أى ظاهر العداوة عند ذوى البصيرة وان كان يظهر الولاية لمن يغويه وذلك سمى وليا فى قوله تعالى « أولياؤهم الطاغوت »(٥٠) •

ويربط العلامة الألوسى التعليل للنهى بصدر الآية ليشيع جوا من الايقاظ لبنى آدم ويتذكروا صنيعه مع أبيهم آدم ، فيقول « انه لكم عدو مبين ــ أى ظاهر العداوة ، وهو تعليل لوجوب الانتهاء ، وقيل تعليل للنهى » ويضيف « وعداوة اللعين جاءت من قبل عداوته لآدم عليه السلام • والنداء بوصف النبوة لآدم كالتمهيد لهذا التعليل والتأكيد لعدم جريهم على مقتضى العلم فهم والمنكرون سواء »(٥١)•

ويقف العلامة الرازى عند قوله تعالى « عدو مبين » موضحا : لم كان متظاهرا بالعداوة من جهة وكيف ؟ ولم وصف بالابانة وهى الوضوح والظهور وتلك صفة من صفات البليغ الذى يفصح ويعبر عما فى نفسه مع أنا لا نراه ولا نسمعه •

يقول الرازى « وكان الشيطان عدوا مبينا أى متظاهرا بالعداوة وذلك لأن الشيطان التزم أمورا سبعة فى العداوة ، أربعة منها فى قوله تعالى : « ولأضلنهم ولأمنينهم ولآمرنهم فليبتكن آذان الأنعام ولآمرنهم فليغيرن خلق الله » • وثلاثة منها فى قوله تعالى «لأقعدن لهم صراطك

---

(٤٩) الكشاف ص ٣٢٧ ج ١ •
(٥٠) أبو السعود ص ١٨٨ ج ١ •
(٥١) الألوسى ص ٤٠ ج ٢٣ •

المستقيم ثم لآتينهم من بين أيديهم ومن خلفهم وعن أيمانهم وعن شمائلهم ولا تجد أكثرهم شاكرين » • فلما التزم الشيطان هذه الأمور السبعة كان عدوا متظاهرا بالعداوة ولهذا وصفه الله تعالى بذلك »(٥٢) •

وفى موضع آخر يقول « مبين — من صفات البليغ الذى يعرب عن ضميره ووصف الشيطان بذلك مع أنا لا نرى ذاته ولا نسمع كلامه لأن الله تعالى لما بين عداوته لآدم ونسله فلذلك الأمر صح أن يوصف بأنه عدو مبين وان لم يشاهد » • ويضيف مجليا بمثال : « ومثاله : من يظهر عداوته لرجل فى بلد بعيد فقد يصح أن يقال أن فلانا عدو مبين لك وان لم يشاهده فى الحال • وعندى وجه آخر وهو أن الأصل فى الابانة القطع • والبيان انما سمى بيانا لهذا المعنى فانه يقطع بعض الاحتمالات عن بعض ، فوصف الشيطان بأنه مبين معناه أنه يقطع المكلف بوسوسة عن طاعة الله وثوابه ورضوانه(٥٣) • والوجهان قويان ، تأتى القوة للأول من كمال وصف الله له وارشاده لنا • والقوة للثانى من الدلالة اللغوية والمعنى المطرد •

وعن عبادة الشيطان يقول الزمخشرى « انها طاعته فيما يوسوس به اليهم ويزينه لهم »(٥٤) • لذا صدرت الآية بالاستفهام التوبيخى ليقرع المطيعين للشيطان ويحثهم على التوجه الى ربهم(٥٥) •

أما الآيتان الحاويتان الأمر والتوكيد الحاث على اتيان هذا الأمر، فهما قوله تعالى « وقل لعبادى يقولوا التى هى أحسن ان الشيطان

---

(٥٢) الرازى ص ٤/٢ جـ ٥ •
(٥٣) الرازى ص ٢٠٩/٢٠٦ جـ ٥ •
(٥٤) الكشاف ص ٣٢٧ جـ ٣ •
(٥٥) راجع الشهاب ص ٢٤٨ جـ ٧ •

ينزغ بينهم ان الشيطان كان للانسان عدوا مبينا » • ٥٣ من الاسراء، قوله تعالى « ان الشيطان لكم عدو فاتخذوه عدوا انما يدعو حزبه ليكونوا من أصحاب السعير » ٦ فاطر •

وواضح أن الأمر فى آية الاسراء متقدم على العلة بعكس آية فاطر لكنهما يلتقيان فى الحث المعلل مع اتحاد العلة المؤكدة وهى عداوة الشيطان الأزلية وخسارته المؤكدة • والأزلية بدلالة فعل الكون « كان للانسان عدوا مبينا » • وخسارته بدلالة « انما يدعو حزبه ليكونوا من أصحاب السعير » ويقوى من دلالة النصين تصدير جملة الكون بان المؤكدة وتصدير الخسران بأداة القصر انما •

لذلك يلحظ الزمخشرى فى آية الاسراء حث الله تعالى عباده المؤمنين أن يحتاطوا فى تعبيراتهم مع المشركين حتى لا يداخلهم الشيطان ويوقع بينهم الشرور والخسارات ، هكذا بالأمر الحثيث والاضافة الندية « وقل لعبادى » ثم العلة المؤكدة « ان الشيطان ••• » والمشفوعة بنقوية أخرى « ان الشيطان كان ••• » يقول الزمخشرى «وقل لعبادى — وقل للمؤمنين يقولون — للمشركين الكلمة — التى هى أحسن وألين ولا يخاشنوهم ولا يقولوا لهم : انكم من أهل النار وأنكم معذبون وما أشبه ذلك مما يغيظهم ويهيجهم على الشر «ويضيف «وقوله ان الشيطان ينزغ بينهم — اعتراض يعنى يلقى بينهم الفساد ويغرى بعضهم على بعض ليقع بينهم المشارة والمشاقة »(٥٦) ويحدد أبو السعود أن المطلب هنا خاص بوقوع المحاورة مع المشركين(٥٧) •

---

(٥٦) الكشاف ص ٤٥٣ ج ٢ •
(٥٧) أبو السعود ص ١٧٨ ج ٥ •

وفي ذلك غلق وسد لأبواب الشرور لاسيما والنفوس عندئذ مضطرمة ثائرة • فيالله على لطفه ونصحه وحفظه لعباده المؤمنين •

بينما آية فاطر ، يلفت الزمخشرى النظر الى توجيه الأمر فى الآية فيقول « فاتخذوه عدوا — فى عقائدكم وأفعالكم ولا يوجدن منكم الا ما يدل على معاداته ومناصبته فى سركم وجهركم » • ويضيف موضحا علة الأمر فيقول : « ثم لخص سر أمره وخطأ من اتبعه بأن غرضه الذى يؤمه فى دعوته لشيعته ومتبعى خطواته هو أن يوردهم مورد الشقوة والهلاك وأن يكونوا من أصحاب السعير »(٥٨) • ويكرر هذا المعنى ، العلامة البيضاوى مصرحا بلفظتى التقرير وبيان الغرض فيقول « انما يدعو حزبه ليكونوا من أصحاب السعير — تقرير لعداوته وبيان لغرضه فى دعوة شيعته الى اتباع الهوى والركون الى الدنيا »(٥٩) •

الجهة الثالثة من البحث : وهى الجهة التى تحكى عداوة العصاة والكافرين لله تعالى •

وتنتظم آيات ثمان هى : ٩٧ ، ٩٨ من البقرة ، ٦٠ من الأنفال ، ١١٤ من التوبة ، ٣٩ من طه ، ١٩ ، ٢٨ من فصلت ، ١ من الممتحنة •

وبالتأمل فى نصوص هذه الآيات أمكن تقسيمها على النحو التالى :

أ — معنى هذه العداوة وما يستتبعها • وتباوره الآيات الأربع التى هى : ٩٧ ، ٩٨ البقرة ، ٣٩ طه ، ١١٤ التوبة •

ب — ما يطلب من المؤمنين تجاه هؤلاء العصاة وتبلوره آيتان هما : ٦٠ من الأنفال ، ١ من الممتحنة •

جـ — ما ينتظر هؤلاء العصاة ، فى الآخرة وتحكيه آيتان هما :

---

(٥٩) حاشية الشهاب على البيضاوى ص ٢١٦ جـ ٧ •

١٩ ، ٣٨ من فصلت وبذلك نجد التكامل والترابط بين جهات تلك المسألة : فعرض وتجلية لمضمونها ثم صنيع المؤمنين ثأرا لدينهم وربهم فى الدنيا ، ثم حسم وانهاء للمسألة فى الآخرة على يد الله عز وجل معاقبا ومعذبا •

أ ــ والآن الى الفقرة (أ) بآياتها الأربع وهى :

٩٧ ، ٩٨ البقرة وهما قوله تعالى « قل من كان عدوا لجبريل فانه نزله على قلبك باذن الله مصدقا لما بين يديه وهدى وبشرى للمؤمنين • من كان عدوا لله وملائكته ورسله وجبريل وميكال فان الله عدو للكافرين » •

٣٩ من طه قوله تعالى « أن اقذفيه فى التابوت فاقذفيه فى اليم فليلقه اليم بالساحل يأخذه عدو لى وعدو له وألقيت عليك محبة منى ولتصنع على عينى » • ، ١١٤ من التوبة قوله تعالى « وما كان استغفار ابراهيم لأبيه الا عن موعدة وعدها اياه فلما تبين له أنه عدو لله تبرأ منه ان ابراهيم لأواه حليم » • صدق الله العظيم

وآيتا البقرة يرد فيهما لفظ « عدو » فى طى الاسلوب الشرطى ليعقبه جواب كاشف عن خيبة هذا العدو الذى عادى ربه أو ملكا أو رسولا من عباد الله ، اذ كيف يعادى من حمل أمانة السماء الى أهل الأرض أم كيف تصدر العداوة من الضعيف الموهوب تجاه القوى الواهب الأحد ؟؟

وواضح هنا استتباع عداوة أهل الله اثر عداوة الله فالحق وأهله هم أعداء الباطل وأهله •

وهذا واضح فى آية طه فالتشريك فى صفة العداوة وتوحيد العدو لله تعالى ونبيه موسى ليضفى على المقام جوا من التشريف والتكريم

فالنبى تابع لربه والتابع والمتبوع لهما جهة واحدة هى الحق والعدل والخير ، وعدوهما واحد هو الباطن والشرك والشر • أما آية التوبة فهى تبلغ الذروة فى التعبير عن ملازمة الحق ولو استدعى الملازم أن يترك أباه وأصله الترابى اذا ما بدر منه ما يعادى الحق الحقيقى والله الواحد الأحد •

كل ذلك فى اسلوب تفصيلى هادىء ذى جـواب حاسم باتر : « فلما تبين •••تبرأ منه » •

ولكن ، ما معنى عداوتهم لله تعالى ؟ أهى انزال المضار والأذى كما هو الحال بيننا ؟ أم أنها كراهتهم لطـاعته ومحاربتهم أوليـائه وأحبابه ويكون الكلام على التشبيه أم المجاز ؟

يقول فى ذلك العلامة الرازى « معنى العداوة فى الحقيقة لا يصح الا فينا لأن العدو للغير هو الذى يريد انزال المضار به وذلك محال على الله تعالى بل المراد منه أحد وجهـين : اما أن يعادوا أوليـاءه فيكون ذلك عداوة لله كقوله تعالى : انما جزاء الذين يحاربون الله ورسوله • وكقوله : ان الذين يؤذون الله ورسوله لأن المراد بالآيتين أولياء الله دونه لاستحالة المحاربة والأذية عليه • واما أن يراد بذلك كراهتهم القيام بطاعته وعبادته وبعدهم عن التمسك بذلك فلمـا كان العدو لا يكاد يوافق عدوه أو ينقاد له شبه طريقتهم فى هذا الوجـه بالعداوة »(٦٠) •

كما أنه لا يغيب عنا أن البون شاسع بين العداوتين فى الآية : عداوة العصاة وعداوة الله فى قوله « من كان عدوا لله •• فان الله عدو للكافرين » •

---

(٦٠) الرازى ص ١٩٧/١٩٨ جـ ٣ •

يقول الرازى « لأن عداوتهم لا تؤثر ولا تنفع ولا تضر،وعداوته تعالى تؤدى الى العذاب الدائم الأليم الذى لا ضرر أعظم منه(٦١)• وبذا تكون المقابلة فى الآية بين أمرين متباعدين فى الأثر وان اتحدا فى اللفظ وذلك مجلبة للتحذير والترهيب لأهل المعصية والتجنيب لأهل الطاعة • كما أن الاظهار فى موضع الاضمار فى الآية يثير حكاية السبب والعلة فى النكال بهم ، هو كفرهم وغفلتهم وشناعة جرمهم مع ربهم، يقول الزمخشرى « فان الله عدو للكافرين ــ أراد : عدو لهم فجاء بالظاهر ليدل على أن الله انما عاداهم لكفــرهم »(٦٢) وايراد هذا الجــواب ــ فى هذا الاسلوب الشرطى ــ مؤثرا فيه الاســمية على الفعلية ليوحى بثباته ووقوعه وشدته واستدامته ، فلا تجدد ولا تغير ولا احداث أثر احداث بل وقوع دفعة واحدة وأبدا ، يقــول فى ذلك أبو السعود « فان الله عدو للكافرين ــ أى لهم ، جــواب الشرط والمعنى من عاداهم عاداه الله وعاقبه أشد العقاب • وايثار الاسمية للدلالة على التحقق والثبات »(٦٣) •

أما آية طه فلفظة « عدو » جىء بها ــ كذلك ــ فى طى الجواب السارى فى الاسلوب الشرطى وكررت للمبالغة فى شأن تلك العــداوة وهذا العدو وهو فرعون ــ قائله الله ــ من جهة ، ولأن عداوة فرعون لله سابقة لعداوته لموسى أو أن عداوته لله متحققة ولموسى متوقعة ، وهذا كله من أسرار تقــديم « لى » فى الآيــة على المتعلق الثــانى « له »(٦٤) •

---

(٦١) الرازى ص ١٩٧ جـ ٣ •

(٦٢) الكشاف ص ٣٠٠ جـ ١ •

(٦٣) أبو السعود ص ١٣٤ جـ ١ •

(٦٤) راجع حاشية الشهاب ص ٢٠٠ جـ٦•

أما آية التوبة فهى تجرى على النسق السابق من ايراد لفظة « عدو » فى حيز الاسلوب الشرطى « فلما تبين له أنه عدو لله تبرأ منه » مع فارق أنه هنا تابع للشرط أما الجواب فهو الأمر المرتقب والذى يكشف عن ترك كل صاحب وقريب عندما يتبين أنه عدو لله تعالى . يقول الزمخشرى « فان قلت فما معنى قوله : فلما تبين له .... تبرأ منه ؟ قلت معناه : أنه لما تبين له من جهة الوحى أنه لن يؤمن وأنه يموت كافرا وانقطع رجاؤه عنه قطع استغفاره »(٦٥) .

ويلمح العلامة أبو السعود الدقة فى التعبير عن القطع بالتبرؤ بدلاً من الترك ونحوه فيقول « تبرأ منه — أى تنزه عن الاستغفار له وتجانب كل التجانب ، وفيه من المبالغة ما ليس فى تركه ونظائره»(٦٦) اذ التبرؤ لا يشتم منه أو معه عود الى السابق لكن الترك ونحوه قد يرتد التارك فيعود الى ما تركه ، وهذا أمر متسق مع دين ووجدان هذا النبى الكريم الذى يعرف حق وقدر ربه .

ب — أما الفقرة « ب » وهى التى تحكى ما يطلب من المؤمنين تجاه هؤلاء العصاة فتنتظم آيتين فقط ، الأولى تأمر بالفعل والثانية تنهى عن فعل والأمر موجه الى اعداد القوة والمنعة . والنهى موجه الى الموادة والتحاب والآية الأولى هى ٦٠ من الأنفال « وأعدوا لهم ما استطعتم من قوة ومن رباط الخيل ترهبون به عدو الله وعدوكم » .

والمراد بالقوة المطلوب اعدادها كما يقول الرازى هى « ما يكون سببا لحصول القوة من أنواع الأسلحة والرمى والحصون . أو أنه عام فى كل ما يتقوى به على حرب العدو وكل ما هو آلة للغزو والجهاد فهو من جملة القوة »(٦٧) .

---

(٦٥) الكشاف ص ٢١٧ جـ ٢ .
(٦٦) أبو السعود ص ١٠٧ جـ ٤ .
(٦٧) الرازى ص ١٨٥ جـ ١٥ .

ونلاحظ على كلام الرازى أنه يلف حول مراد وعمومية المطلوب فى الآية وشموله المنبعث من دلالة قوله « ما استطعتم من قوة » .

وتكرير لفظة « العدو » فى الآية واضافته مرتين : الى لفظ الجلالة والى ضمير المسلمين ، لهو دليل عتو ومجاوزة بالغة ، يقول فى ذلك أبو السعود « عدو الله وعدوكم — هم كفار مكة ، خصوا بذلك من بين الكفار مع كون الكل كذلك لغاية عتوهم ومجاوزتهم الحد فى العداوة »(٦٨) .

أما الآية الناهية فهى الأولى من سورة الممتحنة « يا أيها الذين آمنوا لا تتخذوا عدوى وعدوكم أولياء تلقون اليهم بالمودة .... الخ الآية .

فاثر النداء الودود ينهاهم ربهم عن موالاة أعدائه فأعداؤه أعداؤهم وفى ذلك غاية الود وروعة النسب لذلك أخافهم بهذا التهديد فى نهاية الآية « ومن يفعله منكم فقد ضل سواء السبيل »(٦٩) .

(ج) أما الفقرة (ج) فهى التى تحكى ما ينتظر هؤلاء العصاة فى الآخرة ، وتحكى ذلك آيتان هما ١٩ ، ٢٨ من فصلت . وهما : قول الله تعالى : « ويوم يحشر أعداء الله الى النار فهم يوزعون ، قوله « ذلك جزاء أعداء الله النار لهم فيها دار الخلد جزاء بما كانوا بآياتنا يجحدون » .

والآية الأولى تحكى حالهم الخاص بهم يوم الحشر الى النار . والثانية تحكى جزاءهم وتشير اليه مباعدة له فى الاهلاك وضاربة به

---

(٦٨) أبو السعود ص ٣٢ ج ٤ .

(٦٩) انظر ما قاله الزمخشرى ص ٨٩ ج ٤ وصاحب الظلال ص ٣٥٤٠ ج ٢٨ .

البعد البعيد فى النكال والاذلال ثم توقع الاشارة على النار ثم تردف باسلوب تجريدى بليغ « لهم فيهـا دار الخلد » وهى كلهـا دار خلد للكافرين والظالمين الا أنه من باب التهويل والتفظيع عليهم جعل الأمر من قبيل أنه سيقتطع من جهنم دارا خاصة بهم يجدون فيها ما يتناسب مع عداوتهم لله ومخلدين فى ذلك

يقول الزمخشرى فى الآية الأولى « فهم يوزعون — أى يحبس أولهم على آخرهم أى يستوقف سوابقهم حتى يلحق بهم تواليهم ، وهى عبارة عن كثرة أهل النار »(٧٠) •

ويقول الرازى فى الآية الثانية « لما قال تعالى فى الآية المتقدمة : ولنجزينهم أسوأ الذى كانوا يعملون • بين أن ذلك الأسوأ الذى جعل جزاء أعداء الله هو النار ، ثم قال لهم فيها دار الخلد — أى لهم فى جملة النار دار السيئات معينة وهى دار العذاب المخلد لهم »(٧١) •

الجهة الرابعـة من البحث : وهى التى تحكى عـداوة الكافرين والفاسقين للمؤمنين أهل الحق والتوحيد • وآيات هذه الجهة ثمـانى آيات : ثلاث منها تحدد وتعين هذا العدو ، وثلاث أخرى تحث على التأسى بالرسل وذويهم لما صبروا حتى نصروا • واثنتان تحذران من مجاورة الكفرة وأهل النفاق :

(أ) والآيات الثلاث التى تحدد وتعين عدو المؤمنين هى :

قوله تعالى « والله أعلم بأعـدائكم وكفى بالله وليا وكفى بالله نصيرا » ٤٥ النساء •

---

(٧٠) الكشاف ص ٤٥٠ ج ٣ •

(٧١) الرازى ص ١٢٠ ج ٢٧ •

قول الله تعالى « ان الكافرين كانوا لكم عـدوا مبينا » بعض آية ١٠١ من النساء ٠

قول الله تعالى « لتجدن أشد الناس عداوة للذين آمنوا اليهود والذين أشركوا » بعض آية ٨٢ من المائدة ٠

وبالنظر والدرس فى الآيات الثلاث نجد أن الآية ٤٥ من النساء تخبر أن الله أعلم بأعداء المؤمنين وأن علمه يقتضى ـ لطفا منه ـ أن يتولاهم وينصرهم ان التزموا بتوجيهاته ٠ وأن صيغة « أعلم » على بابها أى أعلم منكم ٠

يقول الزمخشرى « والله أعلم ـ منكم ، بأعدائكم »(٧٢) ويجلى ذلك أبو حيان ويشير الى أخذ الحذر بعد توجيه الله لهم فيقـول : « وأعلم ، على بابها من التفضيل أى أعلم بأعدائكم منكم وقيل بمعنى عليم أى عليم بهم ٠ والمعنى أنه تعالى قد أخبر بعداوتهم للمؤمنين فيجب حذرهم »(٧٣) ٠

وزيادة فى الطمأنة لهم ، جىء بذكر النصير بعد الولى وكرر لهم قوله « وكفى بالله » يقول العلامة الرازى :

« ذكر النصير بعد ذكر الولى لا يكون تـكرارا لأن الولى هو المتصرف فى الشىء والمتصرف فى الشىء لا يجب أن يكون ناصرا ٠وكرر قوله « وكفى بالله » لأن التكرار فى مثل هذا المقام يكون أشد تأثيرا فى القلب وأكثر مبالغة(٧٤) ٠ ثم تأتى الآية ١٠١ من النساء لتقـرر عداوة الكافرين وتأتى آية المائدة ٨٢ لتخبر أن اليهود أشد عـداوة

---

(٧٢) الكشاف ص ٥٣٠ جـ ١ ٠
(٧٣) أبو حيان ص ٢٦١ مجلد ٣ ٠
(٧٤) الرازى ص ١١٦ جـ ١٠ ٠

من المشركين وبذا تتكامل الآيات الثلاث : ارجاع علم التحديد والتعيين للعدو والنصرة عليه ، لله تعالى ، ثم الكشف عن صفاته وأهمها الكفر والشرك وأشد الكفرة والمشركين عداوة هم اليهود • وكل ذلك ــ كما سبق ــ موجب للحذر كما قال تعالى « هم العدو فاحذرهم » • يقول أبو السعود فى الآية ١٠١ من النساء « وقوله تعالى ان الكافرين كانوا لكم عدوا مبينا ــ تعليل لذلك باعتبار تعلله بما ذكر أو لما يفهم من الكلام من كون فتنتهم متوقعة فان كمال عداوتهم للمؤمنين من موجبات التعرض لهم بسوء »(٧٥) •

ويعلل الزمخشرى لتقديم اليهود على المشركين فى آية المائدة فيقول « لتجدن ••• عداوة ••• ــ جعل اليهود قرناء المشركين فى شدة العداوة للمؤمنين ، بل نبه على تقدم قدمهم فيها بتقديمهم على الذين أشركوا »(٧٦) •

بينما يلمح العلامة الألوسى السر البلاغى فى التوكيد بالقسم فى صدر الآية قائلا « لتجدن أشد ••• ــ جملة مستأنفة مسوقة لتقرير ما قبلها من قبائح اليهود وأكدت بالقسم اعتناء ببيان تحقق مضمونها »(٧٧) • والواقع التاريخى يحكى ــ وسيظل يحكى ــ تحقق مضمون هذه الآية الكريمة فيحكى صاحب الظلال مستشهدا بالتاريخ الذى لا يكذب ، أن الذى ألب الأحزاب على الدولة المسلمة الناشئة • يهودى وأن الذى أطلق الشائعات فى فتنة مقتل عثمان رضى الله عنه يهودى ، والذى قاد حملة الوضع والكذب فى أحاديث رسول الله ﷺ وفى الروايات والسير يهودى • والذى كان وراء النكبات والانقلابات وعزل الشريعة عن الحكم والغاء الخلافة جملة يهودى • والذى كان

---

(٧٥) أبو السعود ص ٢٢٦ ج ٢

(٧٦) الكشاف ص ٦٣٧/٦٣٨ ج ١ •

(٧٧) روح المعانى ص ٢ ج ٧ •

وراء النزعه المادية الالحادية يهودي .. ووراء النزعة الحيوانية الجنسية يهودى .. ووراء معظم النظريات الهدامة لكل المقدسات والضوابط يهودى »(٧٨) .

(ب) والآيات الثلاث التى تحث على التأسى بالرسل وذويهم عند ظهور العداوة من الطرف المقابل ، هى الآيات : ٤ من الممتحنة ، ٣١ من الفرقان ، ١٤ من الصف يقول الله تعالى فى سورة الممتحنة « قد كانت لكم أسوة حسنة فى ابراهيم والذين معه اذ قالوا لقومهم انا برآء منكم ومما تعبدون من دون الله كفرنا بكم وبدا بيننا وبينكم العداوة والبغضاء أبدا حتى تؤمنوا بالله وحده » .

ويقول فى آية الفرقان « وكذلك جعلنا لكل نبى عدوا من المجرمين وكفى بربك هاديا ونصيرا .

ويقول فى آية الصف « يا أيها الذين آمنوا كونوا أنصار الله كما قال عيسى بن مريم للحواريين من أنصارى الى الله قال الحواريون نحن أنصار الله فآمنت طائفة من بنى اسرائيل وكفرت طائفة فأيدنا الذين آمنوا على عدوهم فأصبحوا ظاهرين .

فآية الفرقان تعرض جانبا من تسلية الله تعالى لرسوله الكريم وأنه — ﷺ — ليس بدعا ولا جديدا فى أمر العداوة مع قومه ، بل هو مشبه اخوته وسابقيه من الأنبياء والمرسلين وسيشبههم — كذلك — فى نصرة الله وهدايته له . يقول الزمخشرى « وكذلك — كان كل نبى قبلك مبتلى بعداوة قومه وكفاك بى هاديا الى طريق قهرهم والانتصار منهم وناصرا لك عليهم »(٧٩) . ويرى أبو السعود أن

---

(٧٨) الظلال ص ٩٦١ جـ ٧ .

(٧٩) الكشاف ص ٩٠ جـ ٣ .

الآية تجمع بين التسلية والتأسى والوعد الكريم فيقول «وكذلك جعلنا ـ تسلية لرسول الله وحمل له على الاقتداء بمن قبله • وكفى •••• وعد كريم له بالهداية الى كافة مطالبه والنصر على أعدائه »(٨٠) • والآية متكاملة التأثير على النفس عند مجابهة العدو ، فهى مسلية وحاملة للاقتداء وواعده بالنصر ، وكلها أمور يحتاجها الذى يتجشم مكائد الأعداء •

أما آيتا الممتحنة والصف فهما يلتقيان فى توجيه التأسى الى المؤمنين برسلهم والصالحين مع هؤلاء الرسل ، ولكن تأس من نوع آخر يتسق مع صبر وجلد الأنبياء ، ألا وهو مناصرتهم ومباغضة أعدائهم والوقوف حتى آخر لحظة مع الحق مع وعد وتبشير بالنصر •

فآية الممتحنة تحكى التأسى فى التبرؤ من الكفرة حتى يؤمنوا واعلان العداوة واظهار الشحناء للمخالف فى العقيدة دون خوف أو وجل • وجىء بها فى اسلوب خبرى موغل فى القدم ـ ايماء ببقائه فى السمو والعلو ـ موسوم بالجمال والحسن فوق ما فيه من تنكير يدعم ويقوى ذلك « قد كانت لكم أسوة حسنة » •

يقول الزمخشرى « أى كان فيهم مذهب حسن مرض بأن يؤتسى به ويتبع أثره وهو قولهم لكفار قومهم ما قالوا حيث كاشفوهم بالعداوة »(٨١) •

وعن هذه الوقفة الحاسمة مع أقرب الأقربين وابعادهم وراء الحق والعقيدة ، يقول صاحب الظلال « هى المفاصلة الحاسمة التى لاتستبقى شيئا من الوشائج والأواصر بعد انقطاع وشيجة العقيدة وآصرة الايمان »(٨٢) •

---

(٨٠) أبو السعود ص ٢١٥ ج ٦ •
(٨١) الكشاف ص ٩٠ ج ٤ •
(٨٢) الظلال ص ٣٥٤٢ ج ٢٨ •

وبعد الحث لسيدنا رسول الله والحث لأمته جيء بالأمر والطلب الذى يجعل المؤمنين فى كل زمـان ومكان مناصرين ومنـافحين للحق والعقيدة كمناصرة الحواريين لنبى الله عيسى وحسم المسألة لصالح المؤمنين به ودحر الكافرين •

وفى اسلوب التشـبيه فى الآية تلاق طيب واتساق مع الآيتـين السابقتين فما التأسى الا أن يشبه اللاحق سابقه والا فيكون محجوجا بهذا السابق •

يقول الزمخشرى ويتابعه أبو السعود « التشبيه محمـول على المعنى وعليه يصح والمراد كونوا أنصار الله كما كان الحواريون أيضا أنصار عيسى حين قال لهم من أنصارى الى الله » ويضيف « فآمنت طائفة ـ منهم بعيسى ـ وكفرت ـ به ـ طائفة فأيدنا مؤمنيهم على كفارهم فظهروا عليهم »(٨٣) •

(ج) وأما الآيتان : ٨٣ من التوبة ، ٩٢ من النساء فهما يوردان لفظة « عـدو » فى جو من التحـذير والنهى عن أمرين : الأول هو التخلف عند الزحف ومقاتلة العدو كما فى آية التوبة • والثـانى هو البقاء بالعقيدة فى بيئة كافرة وعاقلة مشركة • كما فى آية النساء •

يقول الله تعالى فى آية التوبة ٨٣ « فان رجعك الله الى طائفة منهم فاستأذنوك الخروج فقل لن تخرجوا معى أبدا ولن تقاتلوا معى عدوا انكم رضيتم بالقعود أول مرة فاقعدوا مع الخالفين ••• » وآية النساء « وما كان لمؤمن أن يقتل مؤمنا الا خطأ •• فان كان من قوم عدو لكم وهو مؤمن فتحرير رقبة مؤمنة » •

---

(٨٣) الكشاف ص ١٠١ ج ٤ وأبو السعود ص ٢٤٦ ج ٠٨

وملاحظ على آية التوبة أنها تحكى خبرا يسرى فيه معنى النهى أى نقص عليكم ما يجب أن تحذروه ثم تقوى جانب المحذور بتوكيد وتعليل للصنيع المكروه والمبغوض ثم نردفه بهذا الاسلوب الطلبى الذى معناه الاهمال والهزؤ « فاقعدوا مع الخالفين »•يقول أبو السعود « فقل — اخراجا لهم عن ديوان الغزاة وابعادا لمحلهم عن محفل صحبتك : لن تخرجوا معى أبدا ولن تقاتلوا معى عدوا — من الأعداء، وهو اخبار فى معنى النهى للمبالغة » ويضيف « أنكم — تعليل لما سلف أى لأنكم رضيتم بالقعود — أى عن الغزو وفرحتم بذلك • أول مرة هى غزوة تبوك فاقعدوا مع الخالفين — الفاء لتفريع الأمر بالقعود بطريق العقوبة على ما صدر عنهم من الرضا بالقعود أى اذا رضيتم بالقعود أول مرة فاقعدوا من بعد مع الخالفين أى المتخلفين الذين ديدنهم القعود والتخلف دائما »(٨٤) •

وآية النساء يقول فيها الكشاف « من قوم عدو لكم — من قوم كفار أهل حرب وذلك نحو رجل أسلم فى قومه الكفار وهو بين أظهرهم لم يفارقهم فعلى قاتله الكفارة اذا قتله خطأ وليس على عاقلته لأهله شىء لأنهم كفار محاربون »(٨٥) فكأن بقاءه فى أرض العدو أسقطت ديته وفى ذلك حث على الفرار بالعقيدة الى دار ايمان واسلام •

لذا يجلى ذلك العلامة الرازى ويقول « لأنا لو أوجبنا الدية فى قتل المسلم الساكن فى دار الحرب لاحتاج من يريد غزو دار الحرب الى أن يبحث عن كل أحد أنه هل هو من المسلمين أم لا ، وذلك مما يصعب ويشق فيفضى ذلك الى احتراز الناس عن الغزو » ويضيف :

---

(٨٤) أبو السعود ص ٨٩ جـ ٤ •

(٨٥) الكشاف ص ٥٥٣ جـ ١ •

« فالأولى سقوط الدية عن قاتله لأنه هو الذى أهدر دم نفسه باختياره السكنى فى دار الحرب »(٨٦) •

وبذا يتضح لنا ، كم عكر العدو على المسلم المقتـــول وآله فى آية النساء ، وكم سفه العدو جماعة مســـلمه بسببه فى آية التوبة ، فهذا هدى الله فليلتزم •

الجهة الخامسة من البحث : وتنتظم آيات تبلغ سبعا وعشرين، تحكى فى زوايا متعددة جوانب خفية ودقيقة لتجاوزات واعتـــداءات تخفى على كثيرين بغية أن يتنبه لها أهل الخير ليسدوا على الشيطان مداخلها •

والآيات السبع والعشرون تتعدد زواياها على النحو التالى :

(أ) سبع آيات تحكى تجاوزات واعتداءات فى المأكولات •

(ب) ست آيات تحكى تجاوزات واعتداءات فى القتال والقصاص

(جـ) أربع آيـــات تحكى تجـــاوزات واعتـــداءات فى العهـــود والالتزامات •

(د) أربع آيات تحكى تجاوزات واعتداءات فى الطلاق والزواج

(هـ) أربع آيات تحكى تجـــاوزات واعتداءات فى فعل جـــوار محددة •

(و) آيتان فقط تحكى تجاوزات واعتداءات فى الدعاء والخيار •

وواضح أنها ست زوايا خفية فكل منها ينشغل فيه الانسان أو به ولا يعى الا أنه مأكول فحسب أو قتال وقصاص ، أو مجرد التزام

---

(٨٦) الرازى ص ٢٣٤ جـ ١٠ •

أو طلاق وزواج أو تصرف غير عادى لجارحة من الجوارح أو دعاء كيفما وقع أو تخيير لأى الطرفين وفقط •

لكن الأمر غير ذلك فالتجاوز هنا ، تجاوز محسوب على صاحبه ويؤدى به الى التهديد من الله والوعيد بل وعدم تقبل عمله •

ولنبدأ بالزاوية الأولى :

(أ) الآيات السبع التى تحكى التجاوز والاعتداء فى المأكولات وهى :

١ — ١٧٣ من البقرة قول الله تعالى « انما حرم عليكم الميتة والدم ولحم الخنزير وما أهل به لغير الله فمن اضطر غير باغ ولا عاد فلا اثم عليه ان الله غفور رحيم » •

٢ — ١٤٥ من الأنعام « قل لا أجد فيما أوحى الى محرما على طاعم يطعمه الا أن يكون ميتة أو دما مسفوحا أو لحم خنزير فانه رجس أو فسقا أهل لغير الله به فمن اضطر غير باغ ولا عاد فان ربك غفور رحيم » •

٣ — ١١٥ من النحل « انما حرم عليكم الميتة والدم ولحم الخنزير وما أهل لغير الله به فمن اضطر غير باع ولا عاد فان الله غفور رحيم » •

٤ — ٩٤ من المائدة « يا أيها الذين آمنوا ليبلونكم الله بشىء من الصيد تناله أيديكم ورماحكم ليعلم الله من يخافه بالغيب فمن اعتدى بعد ذلك فله عذاب أليم » •

٥ — ١٦٣ من الأعراف « واسألهم عن القرية التى كانت حاضرة البحر اذ يعدون فى السبت اذ تأتيهم حيتانهم يوم سبتهم شرعا ويوم لا يسبتون لا تأتيهم كذلك نبلوهم بما كانوا يفسقون » •

٦ ــ ٨٧ من المائدة « يا أيها الذين آمنوا لا تحرموا طيبات ما أحل الله لكم ولا تعتدوا ان الله لا يحب المعتدين » •

٧ ــ ١١٩ من الأنعام « وما لكم ألا تأكلوا مما ذكر اسم الله عليه وقد فصل لكم ما حرم عليكم الا ما اضطررتم اليه وان كثيرا ليضلون بأهوائهم بغير علم ان ربك هو أعلم بالمعتدين » •

وبالتأمل أمكن تجميع الآيات الثلاث الأولى [١٧٣ البقرة ، ١٤٥ الأنعام ، ١١٥ النحل] معا لالتقائها فى مقام وحال الضرورة التى تعرض للانسان ، فلولا ما يأكله لمات جوعا وهنا نرى فى الثلاث لفظتى : باغ وعاد ، فهل يتصور من المشرف على الموت والهلاك بغيا وعدوانا ؟ وعلى من ؟ هذا هو محل الدقة والخفاء •

يقول أبو السعود « غير باغ على الوالى ولا عاد بقطع الطريق وعلى هذا لا يباح للعاصى بالسفر »(٨٧) بينما يرى الزمخشرى ــ وهو أسبق من أبى السعود زمنا وفهما لهذا النص الكريم ــ أن المعنى « فمن دعته الضرورة الى أكل شىء من هذه المحرمات ، غير باغ على مضطر مثله تارك لمواساته • ولا عاد ــ متجاوز قدر حاجته من تناوله »(٨٨) فالاشراف على الموت مقدم ــ عقلا ــ على مسألتى البغى على الوالى والقاطع للطريق ، ولكن ، هل ورود القصر بانما معناه أنه لا حرمة على غير ما ذكر ؟ يقول أبو السعود « المراد قصر الحرمة على ما ذكر مما استحلوه لا مطلقا • أو قصر حرمته على حالة الاختيار كأنه قيل انما حرم عليكم هذه الأشياء ما لم تضطروا اليها »(٨٩) وعلى هذا فالقصر اضافى لا حقيقى •

---

(٨٧) أبو السعود ص ١٩١ جـ ١ •
(٨٨) الكشاف ص ٥٨ جـ ٢ •
(٨٩) أبو السعود ص ١٩١ جـ ١ •

وكذلك تلتقى الآيتان : الرابعة والخامسة [٩٤ المائدة،١٦٣ الأعراف] فى كونهما لونا من البلاء والاختبار من الله تعالى فى صورة مأكولات تنازعهما رغبة الانسان وشهوته بدليل « ليبلونكم ــ كذلك نبلوهم » •

ولكن يلاحظ أن البلاء هنا ليس بلاء عظيما وانما هو لكشف المبتلى كم يصبر ؟ والى أى حد يعلو على نزعاته وهواه ، بدليل اباحته قبل البلاء كما فى آية المائدة « فمن اعتدى بعد ذلك ــ فصاد » وبتحديده بيوم واحد من أيام الاسبوع وهو يوم السبت كما فى آية الأعراف « اذ يعدون فى السبت » ولكن لله تعالى أن يبلو عباده بما يمحصهم أو يكشفهم أمام أنفسهم فاذا ما سقطوا كان تجاوزا أو اعتداء •

يقول الزمخشرى فى آية المائدة « فمن اعتدى ــ فصاد ، بعد ذلك الابتلاء فالوعيد لاحق به » ويضيف : « فان قلت ما معنى التقليل والتصغير فى قوله بشىء من الصيد ؟ قلت : قلل وصغر ليعلم أنه ليس بفتنة من الفتن العظام وانما هو شبيه بما ابتلى به أهل ايله من صيد السمك ، وأنهم اذا لم يثبتوا عنده فكيف شأنهم عندما هو أشد منه »(٩٠) ويجلى أبو حيان صورة الاعتداء وعقوبتها فيقول « المعنى : فمن اعتدى بالمخالفة فصاد ، وذلك اشارة الى النهى الذى تضمنه معنى الكلام السابق وتقديره فلا يصيد يدل عليه قوله : ليعلم الله من يخافه بالغيب »(٩١) • وفى آية الأعراف يقول الزمخشرى « اذ يعدون فى السبت ــ اذ يتجاوزون حد الله فيه وهو اصطيادهم فى يوم السبت وقد نهوا عنه ، فهم مأمورون بأن لا يشتغلوا فيه بغير العبادة (٩٢) • فهى بلاءات فى مقدور الانسان الواعى أن يلتزم فيها أمر ربه ولكن !!

---

(٩١) الكشاف ص ٦٤٣ ج ١ •
(٩١) أبو حيان ص ١٧ مجلد ٤ •
(٩٢)الكشاف ص ١٢٥ ج ٢ •

وكذلك السادسة والسابعة [٨٧ المائدة ، ١١٩ الأنعام] يلتقيان فى تصوير الاعتداء وجعله خروجا عن الشرع فى المباحات للأكل وعدم الالتزام بما شرع الله والتجاوز فى اطلاق الأحكام وتضليل النفس والناس • يقول الزمخشرى فى آية المائدة « ولا تعتدوا — ولا تتعدوا حدود ما أحل الله لكم الى ما حرم عليكم ، أو ولا تسرفوا فى تناول الطيبات أو جعل تحريم الطيبات اعتداء وظلما نهى عن الاعتداء ليدخل تحته النهى عن تحريمها دخولا أوليا لوروده على عقبه »(٨٣) بينما يرى الإمام القرطبى شناعة الاعتداء على الشرع والمشرع فيقول « قيل المعنى : لا تعتدوا فتحلوا ما حرم الله فالنهيان على هذا تضمنا الطرفين • أى لا تشددوا فتحرموا حلالا ولا تترخصوا فتحلوا حراما »(٩٤) •

وآية الأنعام تلتقى بجوها العام مع أختها فيقول الزمخشرى : « ليضلون — أى يضلون فيحرمون ويحللون بأهوائهم من غير تعلق بشرع »(٩٥) ويجلى العلامة الرازى بلاغة الختم فى الآية وتوكيده والغاية منه فيقول « ان ربك هو أعلم بالمعتدين — والمقصود من هذه الكلمة التهديد والتخويف »(٩٦) ويلمح الألوسى دلالة قوله تعالى : « بغير علم » فيقول « بغير علم — مقتبس من الشريعة مستند الى الوحى ، أو بغير علم أصلا » • ويضيف : « وذكر ذلك للايذان بأن ما هم عليه محض هوى وشهوة » ويضيف موجها لوضع الظاهر موضع الضمير فيقول : « بالمعتدين — **أى بهم فوضع الظاهر** موضع الضمير لوسمهم بصفة الاعتداء »(٩٧) •

---

(٩٣) الكشاف ص ٦٤٠ جـ ١ •
(٩٤) القرطبى ص ٢٦٣ جـ ٦ •
(٩٥) الكشاف ص ٤٧ جـ ٢ •
(٩٦) الرازى ص ١٦٧ جـ ١٣ •
(٩٧) الألوسى ص ١٤١ جـ ٨ •

(ب) والآيات التى تحكى التجاوز الخفى فى القتال والقصاص، ست آيات هى :

١ قول الله تعالى « ومن يفعل ذلك عدوانا وظلما فسوف نصليه نارا وكان ذلك على الله يسيرا » ٣٠ من النساء .

٢ ــ قوله تعالى « الشهر الحرام بالشهر الحرام والحرمات قصاص فمن اعتدى عليكم فاعتدوا عليه بمثل ما اعتدى عليكم واتقوا الله واعلموا أن الله مع المتقين » ١٩٤ من البقرة .

٣ ــ قوله تعالى « يا أيها الذين آمنوا كتب ليكم القصاص فى القتلى ... فمن عفى له من أخيه شىء فاتباع بالمعروف ... ذلك تخفيف ... فمن اعتدى بعد ذلك فله عذاب أليم » ١٧٨ من البقرة .

٤ ــ قوله تعالى « وقاتلوا فى سبيل الله الذين يقاتلونكم ولا تعتدوا ان الله لا يحب المعتدين » ١٩٠ من البقرة .

٥ ــ قوله تعالى « يا أيها الذين آمنوا لا تحلوا شعائر الله ... ولا يجرمنكم شنآن قوم أن صدوكم عن المسجد الحرام أن تعتدوا وتعاونوا على البر والتقوى ولا تعاونوا على الاثم والعدوان واتقوا الله ان الله شديد العقاب » ٢ من المائدة .

٦ ــ قوله تعالى « وجاوزنا ببنى اسرائيل البحر فأتبعهم فرعون وجنوده بغيا وعدوا حتى اذا أدركه الغرق قال آمنت ... الخ الآية ٩٠ من يونس .

وبالنظر فى مجموع الآيات الست أمكن ترتيبها بالطريقة السابقة ليسهل عرض المسألة وبطريقة مرتبة سلسلة ، فالآيه الأولى (٣٠ من النساء) تريد أن تقول لنا ان وقوع القتل على صورة لا يكون فيها

خطأ ولا قصاصا هو محض اعتداء وعبث وتجاوز يوجب العقاب • والآية الثانية (١٩٤ من البقرة) تقول لنا ان تجاوز المثلية فى القصاص اعتداء • والآية الثالثة (١٧٨ من البقرة) تقول ان تجاوز العفو فى القصاص — ان وقع — اعتداء • والآية الرابعة (١٩٠ من البقرة) تقول ان الزحف والنفرة لا يفاجأ بهما عدو ولا يقتل معهما ضعيف والا كان اعتداء وعدوانا •

والآية الخامسة (٢ من المائدة) تقول ان وقوع البغض فى النفس لا يسوغ للقتل والا كان اعتداء • والآية السادسة والأخيرة (٩٠ من يونس) تحكى مغبة البغى والعدوان مع فرعون قاتله الله فليحذر الباغون ذلك •

والآية الأولى، (٣٠ من النساء) بعد أن سبقت بقوله تعالى « ولا تقتلوا أنفسكم ان الله كان بكم رحيما » جىء بها فى اسلوب شرطى مترابط الأطراف لتحسم العقاب مع المخالف وتحكيه فى اسلوب خبرى موغل فى الثبات والكينونة « وكان ذلك على الله يسيرا » • يقول الزمخشرى « ذلك — اشارة الى القتل أى ومن يقدم على قتل الأنفس — عدوانا وظلما — لا خطأ ولا اقتصاصا •

نارا — أى نارا مخصوصة شديدة العذاب(٩٨) فنون الفاعلين وتنكير نارا والاخبار بيسر ذلك على الله ، كل ذلك يقوى جانب التخويف والتحذير •

ويلمح أبو السعود بلاغة لام البعد فى اسم الاشارة فيقول :

---

(٩٨) الكشاف ص ٥٢٢ ج ١ •

« ذلك — اشارة الى القتل خاصة • وما فيه من معنى البعد للايذان ببعد المنزلة فى الفساد »(٩٩) •

والآية الثانية (١٩٤ من البقرة) تحث على التقوى وتأمر بها بعد تفصيل القصاص بالاسلوب الشرطى الموضح بالشرط والجزاء ومادة المثلية ايماء بأن الخروج على المثلية عدم تقوى وفيه عقاب • يقول الزمخشرى « واتقوا الله — فى حال كونكم منتصرين ممن اعتدى عليكم فلا تعتدوا الى ما لا يحل لكم »(١٠٠) وتضييقا لأمر القتال وتقليلا لوقوع القصاص يقول أبو حيان فى الآية « فاعتدوا — ليس أمرا على التحتم اذ يجوز العفو »(١٠١) •

والآية الثالثة (١٧٨ من البقرة) تحكى فى اسلوب الشرط المتهادى والمفصل أن من عفى له من أخيه شىء بعد وجوب القصاص فليلتزم والا يعاقب بعذاب أليم • يقول الزمخشرى « فمن اعتدى بعد ذلك — التخفيف فتجاوز ما شرع له من قتل غير القاتل أو القتل بعد أخذ الدية•فله عذاب أليم — نوع من العذاب شديد الألم فى الآخرة»(١٠٢)

والآية الرابعة : (١٩٠ من البقرة) تحكى عن تجاوز يقع — غالبا — عند النفرة وملاقاة العدو فهى تحذر من هجوم مباغت أو تتعرض لضعيف أو معاهد ، وذلك أعلى درجات التقدير للانسان كانسان وفى معمعة الحرب وشد المآزر • يقول الزمخشرى فى الآية « ولا تعتدوا — بابتداء القتال أو بقتال من نهيتم عن قتاله من النساء والشيوخ والصبيان والذين بينكم وبينهم عهد أو بالمثلة أو بالمفاجأة من غير دعوة »(١٠٣)•

(٩٩) أبو السعود ص١٧٠ جـ ٢ •
(١٠٠) الكشاف ص ٣٤٣ جـ ١ •
(١٠١) أبو حيان ص ٧٠ مجلد ٢ •
(١٠٢) الكشاف ص ٣٣٣ جـ ١ •
(١٠٣) الكشاف ص ٣٤١ جـ ١ •

والآية الخامسة (٢ المائدة) تعرض لونا عاليا من التهذيب للنفوس وارتقاء المشاعر فهى وان اعترفت بوقوع ضغينة وبغض سابق الا أنها لا تجوز له أن يكون هو السبب فى قتل نفس وتضاعف من الطلب فى فهم ذلك : أمرا ونهيا وقبلا وبعدا ثم تحذر من شدة عقاب الله • يقول الزمخشرى « والمعنى لا يكسبنكم بغض قوم لأن صدوكم ؛ الاعتداء ولا يحملنكم عليه • ومعنى الاعتداء الانتقام منهم بالحاق مكروه بهم »(١٠٤) • ثم يشير القرطبى الى النهى والأمر فى الآية فيقول «ثم نهى فقال : ولا تعاونوا على الاثم والعدوان — وهو الحكم اللاحق عن الجرائم وعن العدوان وهو ظلم الناس • ثم أمر بالتقوى وتوعد توعدا مجملا فقال : واتقوا الله ان الله شديد العقاب »(١٠٥) •

ثم يلمح العلامة أبو السعود السر البلاغى فى تقديم الأمر على النهى فيقول « وانما أخر النهى عن الأمر مع تقدم التخلية على التحلية مسارعة الى ايجاب ما هو مقصود بالذات فان المقصود من ايجاب ترك التعاون على الاثم والعدوان انما هو تحصيل التعاون على البر والتقوى »(١٠٦) •

والآية السادسة والأخيرة (٩٠ من يونس) التى تحكى نهاية البغى والعدوان ليحذر يقول فيها أبو السعود « بغيا وعدوا — ظلما واعتداء أى باغين وعادين أو للبغى والعدوان »(١٠٧) فكانت نتيجته ما حكته الآية « حتى اذا أدركه الغرق قال آمنت » فهو هالك ببغيه وغارق بعدوانه فليحذر ذلك كل باغ ومعتد •

---

(١٠٤) الكشاف ص ٥٩٢ ج ١ •
(١٠٥) القرطبى ص ٤٧ ج ٦ •
(١٠٦) أبو السعود ص ٥ ج ٣ •
(١٠٧) أبو السعود ص ١٧٢ ج ٤ •

(ج) والآيات الأربع التى تحكى التجاوز والاعتداء بعد أخذ العهود والالتزامات هى :

١ ــ قول الله تعالى « ولقد علمتم الذين اعتدوا منكم فى السبت فقلنا لهم كونوا قردة خاسئين » ٦٥ من البقرة .

٢ ــ وقول الله تعالى « ثم أنتم هؤلاء تقتلون أنفسكم وتخرجون فريقا منكم من ديارهم تظاهرون عليهم بالاثم والعدوان ... الخ آية ٨٥ من البقرة » .

٣ ــ قوله تعالى « ورفعنا فوقهم الطور بميثاقهم وقلنا لهم ادخلوا الباب سجدا وقلنا لهم لا تعدوا فى السبت وأخذنا منهم ميثاقا غليظا » ١٥٤ من النساء .

٤ ــ قوله تعالى « وقاتلوهم حتى لا تكون فتنة ويكون الدين لله فان انتهوا فلا عدوان الا على الظالمين » ١٩٤ من البقرة .

وبالتأمل والنظر ، أمكن ترتيب الآيات على النحو السابق بحيث تكون الآيات الثلاث الأولى خاصة باليهود والرابعة فقط خاصة بالمسلمين كتوجيه وارشاد وليس حكاية عن نقضهم ما عاهدوا الله عليه .

فالآية الأولى (٦٥ من البقرة) تحكى نقض اليهود لميثاقهم مع ربهم لما التزموا العبادة وعدم الصيد فى يوم السبت ثم نقضوه فحاق بهم العذاب . يقول الزمخشرى فى الآية « والسبت ــ مصدر سبتت اليهود اذا عظمت يوم السبت ، وان ناسا منهم اعتدوا فيه أى جاوزوا ما حد لهم فيه من التجرد للعبادة وتعظيمه ، واشتغلوا بالصيد »(١٠٨)

---

(١٠٨) الكشاف ص ٢٨٦ ج ١ .

ويلحظ أبو حيان التوكيدات والقسم فى صدر الآية وسرها البلاغى فيقول « ولقد علمتم — اللام فى لقد هى لام التوكيد،ويحتمل أن تكون جوابا لقسم محذوف ولكنه جىء على سبيل التوكيد لأن مثل هذه القصة يمكن أن يبهتوا فى انكارها وذلك لما نال فى عقبى أولئك المعتدين من مسخهم قردة فاحتيج ذلك الى توكيد وأنهم علموا ذلك حقيقة »(١٠٩)

والآية الثانية (٨٥ من البقرة) تحكى ما صنعوه من أمور يستبعدها العقلاء بعد الالتزام بالعهود والمواثيق ، وأن ذلك تجاوز فى افراطهم من قتل واخراج نهوا عنه • يقول الزمخشرى « ثم أنتم هؤلاء استبعاد لما أسند اليهم من القتل والاجلاء والعدوان بعد أخذ الميثاق منهم واقرارهم وشهادتهم »(١١٠) وكانوا قد نهوا عن صنيع ذلك مع أقوام منهم فنقضوا العهد وصنعوا المحذور •

ويجلى العلامة القرطبى شناعة فعلهم والتفافهم المذموم وتجمعهم الممقوت فيقول « تظاهرون — تتعاونون ، مشتق من الظهر لأن بعضهم يقوى بعضا فيكون له كالظهر • والاثم : الفعل الذى يستحق عليه صاحبه الذم •

والعدوان : الافراط فى الظلم والتجاوز فيه(١١١) » بينما يلحظ أبو السعود غضب الله عليهم ووعيده فى نهاية الآية حيث يقول : « وما الله بغافل عما تعملون — من القبائح التى من جملتها هذا المنكر • وهو تأكيد للوعيد »(١١٢) •

---

(١٠٩) أبو حيان ص ٢٤٥ مجلد ١ •
(١١٠) الكشاف ص ٢٩٣ ج ١ •
(١١١) القرطبى ص ٢٠ ج ٢ •
(١١٢) أبو السعود ص ١٢٥ ج ١ •

والآية الثالثة (١٥٤ من النساء) شبيهة بالآية الأولى وهى ٦٥ من البقرة مع فارق أن الآية هنا تحكى كيف خوفهم الله حتى يلتزموا ولما انتشعت محنة الترهيب عادوا الى نقضهم لمواثيق الله فيئست نفوسهم وباءت طباعهم بكل خسران .

يقول الزمخشرى : « ورفعنا .. بميثاقهم — بسبب ميثاقهم ليخافوا فلا ينقضوه وقلنا لهم — والطور مطل عليهم : ادخلوا الباب سجدا ولا تعدوا فى السبت وقد أخذ منهم الميثاق على ذلك وقولهم سمعنا وأطعنا ومعاهدتهم على أن يتموا عليه ، ثم نقضوه بعد »(١١٣). ويجلى أبو السعود مقولة الله لهم فيقول « وقلنا لهم لا تعدوا — أى لا تظلموا باصطياد الحيتان فى السبت »(١١٤) ويرسم صاحب الظلال بريشته المعبرة ما تصوره فى طباع اليهود وما تتناسق مع تلك الطباع من قهر مادى خضعوا له ثم عادوا لما نهوا عنه اذ يقول « واليهود الذين لا تستشعر قلوبهم الايمان أبوا الاستسلام لما فى الألواح .. وهنا جاءهم القهر المادى الذى يناسب طبيعتهم الغليظة .. اذ نظروا فرأوا الصخرة معلقة فوق رءوسهم تهددهم بالوقوع عليهم اذا هم لم يستسلموا ولم يتعهدوا بأخذ ما أعطاهم الله من العهد وما كتبت عليهم من التكاليف فى الألواح ، عندئذ فقط استسلموا وأخذوا العهد وأعطوا الميثاق . ولكن ماذا كان ؟ انهم بمجرد ذهاب الخوف عنهم وغياب القهر لهم تملصوا من الميثاق الغليظ فنقضوه »(١١٥) .

أما الآية الرابعة والأخيرة ، وهى خاصة بالمسلمين (١٩٣ من البقرة) فهى تسوى لهم بين التوقف عن القتال من جانب عدوهم وبين العهد

---

(١١٣) الكشاف ص ٥٧٧ جـ ١ .
(١١٤) أبو السعود ص ٢٥٠ جـ ٢ .
(١١٥) الظلال ص ٨٠٠/٨٠١ جـ ٦ .

الموجب للأمان فان هم قاتلوا المنتهى كانوا معتدين وناقضين لما يساوى العهد والميثاق .

يقول الزمخشرى « فان انتهوا — عن الشرك ، فلا عدوان الا على الظالمين . فلا تعدوا على المنتهين لأن مقاتلة المنتهين عدوان وظلم . أو أريد أنكم ان تعرضتم لهم بعد الانتهاء كنتم ظالمين فليسلط عليكم من يعدو عليكم »(١١٦) وبذا تلوح رائحة الوعيد للمخالف من الآية الكريمة فليحذرها المخاطبون .

(د) والآيات الأربع التى ترشد الى تجنب التجاوزات فى الطلاق والزواج فهى :

١ — قول الله تعالى : « فمن ابتغى وراء ذلك فأولئك هم العادون » ٧ المؤمنون .

٢ — قول الله تعالى « فمن ابتغى وراء ذلك فأولئك هم العادون » ٣١ من المعارج .

٣ — قول الله تعالى « الطلاق مرتان فامساك بمعروف أو تسريح باحسان ... تلك حدود الله فلا تعتدوها ومن يتعد حدود الله فأولئك هم الظالمون » . ٢٢٩ من البقرة .

٤ — وقوله تعالى « واذا طلقتم النساء فبلغن أجلهن فأمسكوهن بمعروف أو سرحوهن بمعروف ولا تمسكوهن ضرارا لتعتدوا ومن يفعل ذلك فقد ظلم نفسه ... الخ الآية » ٢٣١ من البقرة .

وواضح أن الآيتين الأوليين تتكلمان فى الزواج بدليل أن آية

---

(١١٦) الكشاف ص ٣٤٢ ج ١ وكذا القرطبى ص ٣٥٤ ج ٢ د. أبو السعود ص ٢٠٤ ج ١ .

المؤمنـــون مسبوقة بقوله تعـــالى « والذين هم لفروجهم حافظون • الا على أزواجهم أو ما ملكت أيمانهم فانهم غير ملومين » ••• وآية المعارج مسبوقة بنفس الآيتين •

أما الآيتان الأخيرتان فواضح وصريح مطلعهما مع فارق أن الأولى منهما ترشد الى عدد مرات الطلاق والثانية ترشد الى ما يجب فعله عند بلوغ الأجل وتمام العدة ويلتقيان فى المطلب الصريح وهو الامساك بالمعروف أو التسريح بالاحسان وغير ذلك تجاوز واعتداء منهى عنه •

وعن آيتى الزواج يقول أبو السعود « فمن ابتغى وراء ذلك ـــ الذى ذكر من الحـــد المتســـع وهو أربع من الحرائر وما شـــاء من الاماء »(١١٧) •

ويقول الزمخشرى فى تكملة الآية « فأولئك هم العادون ـــ الكاملون فى العدوان المتناهون فيه »(١١٨) وبذا تتضافر الآية:معطية ومحاسبة، معطية الفسحة الحلال ومحاسبة على تجاوز تلك الفسحة وأن من خالف فقد قصرت عليه صفة العدوان والاعتداء دون غيره • وهذه مبـــالغة القصد منها الترهيب وزيادة الالتزام بما أمر الله من حفظ الفرج وعدم النظر الى غير الحلال •

وأما آيتا الطلاق فهما يحذران من تجاوز ما قرره الله فى العدد ومن تجاوز ما شرعه فى التعامل الحسن عند بلوغ الأجل وتمام العدة وشدد على المخالف بهذا الاسلوب الشرطى فى الآيتين :

ومن يتعد حدود الله فأولئك هم الظالمون ، ومن يفعل ذلك فقد ظلم نفسه • مع تكرير لفظـــة « حدود الله » مع اضافتها للاســـم

---

(١١٧) أبو السعود ص ١٢٤ ج ٦ •
(١١٨) الكشاف ص ٢٦ ج ٣ •

الجليل فى الآية الاولى ، وباستخدام الاشارة للبعيد فى الآية الثانية ايماء الى منزلته البعيدة فى المخالفة والاضرار بالغير المنهى عنه .

يقول أبو حيان فى الأولى « وابراز الحدود بالاسم الظاهر لا بالضمير دليل على التعظيم لحدود الله . وفى تكرار الاضافه تخصيص لها وتشريف وأتى فى قوله « الظالمون » بالألف واللام التى تفيد الحصر أو المبالغة فى الوصف »(١١٩) .

وفى معنى الآية يقول الزمخشرى « ولا تمسكوهن ضرارا لتعتدوا — كان الرجل يطلق المرأة ويتركها حتى يقرب انقضاء عدتها ثم يراجعها لا عن حاجة ولكن ليطول العدة عليها فهو الامساك ضرارا . لتعتدوا — لتظلموهن وقيل لتلجؤهن الى الافتداء . فقد ظلم نفسه — بتعريضها لعقاب الله »(١٢٠) .

(هـ) أما الآيات الأربع التى تخص تجاوزات تقع بالعين والأذن ومعهما اللسان فهى : ١٠٨ من الأنعام ، ٢٨ من الكهف ، ٨ ، ٩ من المجادلة .

وآية الأنعام هى قول الله تعالى » ولا تسبوا الذين يدعون من دون الله فيسبوا الله عدوا بغير علم .. الخ الآية » ، آية الكهف هى « واصبر نفسك مع الذين يدعون ربهم بالغداة والعشى .... ولا تعد عيناك عنهم ... »

آيتا المجادلة هما : « ألم تر الى الذين نهوا عن النجوى ثم يعودون لما نهوا عنه ويتناجون بالاثم والعدوان ومعصية الرسول ...

---

(١١٩) أبو حيان ص ٢٠٠ مجلد ٢ .

(١٢٠) الكشاف ص ٣٦٨/٣٦٩ جـ ١ والقرطبى ص ١٥٥ جـ ٣ .

يا أيها الذين آمنوا اذا تناجيتم فلا تتناجوا بالاثم والعدوان ومعصية الرسول وتناجوا بالبر والتقوى واتقوا الله الذى اليه تحشرون » •

وواضح أن الآية الأولى العدوان فيها منبعث من اللسان فى هيئة سب وشتم • والثانية التجاوز والعدوان منبعث من العين فى شكل اقتحام واعتلاء للمرئى • والثالثة والرابعة يصدر التجاوز بالاشتراك بين الأذن واللسان فى هيئة تسارر وتناج غير مرضى عنه •

والآيات الأربع يجمعها الطلب البلاغى فى صورة النهى التحذيرى [ولا تسبوا ــ ولا تعد ــ فلا تناجوا] ومن هذا النهى تفوح رائحة الوعيد والعقاب للمخالف •

يقول الزمخشرى فى آية الأنعام «عدو أى ظلما وعدوانا»(١١١) بينما يوضح أبو السعود التوجيه الربانى فيقول « أى لا تشتموهم من حيث عبادتهم لآلهتهم كأن تقولوا تبا لكم ولما تعبدون مثلا فيسبوا الله عدوا أى تجاوزا عن الحق الى الباطل بأن يقولوا لكم مثل قولكم لهم » • ويضيف العلامة أبو السعود استنباطا ذكيا قائلا : «وفيه أن الطاعة اذا أدت الى معصـــية راجحة وجب تركهـــا فان ما يؤدى الى الشر شر »(١٢٢) •

ويرى العلامة الشهاب أن « عدوا مصدر عدا عليه بمعنى تعدى وتجاوز وهو مفعول مطلق لتسبوا من معناه لأن السب عدوان »(١٢٣) وفى ذلك تفظيع لدلالة المادة المشتق منها الفعل « تسبوا » •

---

(١٢١) الكشاف ص ٤٣ ج ٢ •

(١٢٢) أبو السعود ص ١٧١ ج ٣

(١٢٣) حاشية الشهاب ص ١١ ج ٤ •

أما الآية الثانية (٢٨ من الكهف) فيصرح الزمخشرى بالنهى وطريقة العين فى تجاوزها فيقول « نهى رسول الله ﷺ أن يزدرى فقراء المؤمنين وأن تنبو عينه عن رثاثة زيهم طموحا الى زى الأغنياء وحسن شارتهم » .

وفى صدر الآية يقول : « ولا تعد ــ يقال عداه اذا جاوزه ومنه قولهم : عدا طوره وجاءنى القوم عدا زيد . والمعنى : ولا تقتحمهم عيناك مجاوزتين الى غيرهم »(١٢٤) .

وأبو السعود يرى أن هناك معنى آخر غير النبو وهو : «أن يكون المعنى : لا تصرف عيناك النظر الى غيرهم ، من عدوته عن الأمر أى صرفته عنه » . ويضيف ما نحن بصدد توضيحه :

« والمراد نهيه ﷺ عن الازدراء بهم لرثاثة زيهم طموحا الى زى الأغنياء »(١٢٥) . أما صاحب الظلال فيغوص غوصة عميقة الغور، ضاربة فى عمق المقصود من الآية على مر الدهور فيقول « واصبر نفسك مع هؤلاء ، صاحبهم وجالسهم وعلمهم ففيهم الخير وعلى مثلهم تقوم الدعوات ، فالدعوات لا تقوم على من يعتنقونها لأنها غالبة ، ومن يعتنقوها ليقودوا بها الأتباع ويحققوا بها الأطماع ويتجروا بها فى سوق الدعوات تشترى منهم وتباع ، انما تقوم الدعوات بهذه القلوب التى تتجه الى الله خالصة له لا تبغى جاها ولا متاعا ولا انتفاعا انما تبغى وجهه وترجو رضاه »(١٢٦) .

وصدق صاحب الظلال ، ولكن رسول الله ﷺ ما كان يفوته ذلك وانما نقله الحرص ذاته الى ذات الحرص فالفقراء فى تقديره ﷺ

---

(١٢٤) الكشاف ص ٤٨١/٤٨٢ جـ ٢ .
(١٢٥) أبو السعود ص ٢١٩ جـ ٥ .
(١٢٦) الظلال ص ٢٢٦٨ جـ ١٥ .

مأمونون على الدعوة ومطمئن نحوهم ولكن حرصه الشريف تركز على وجوه القوم حتى تنساح الدعوة وتنداح وحتى تعم القاضى والدانى وحتى يشم عبقها الغنى مع الفقير وتتكامل مشاعر القـوم وألوانهم ودرجاتهم على كل جهة • والحرص ذاته هو الذى جعل ربه يرده الى طاقته المحدودة وقلبه الوديع حينما قال له : فلا تذهب نفسك عليهم حسرات ، وعندما قال له : فلعلك باخع نفسك ألا يكونوا مؤمنين • ﷺ وبارك عليك يا رسول الله •

أما آيتا المجادلة فيقول الزمخشرى : « كانت اليهود والمنافقون يتناجون فيما بينهم ويتغامزون بأعينهم اذا رأوا المؤمنين يريدون أن يغيظوهم ، فنهاهم رسول الله ﷺ فعادوا لمثل فعلهم ، وكان تناجيهم بما هو اثم وعدوان للمؤمنين وتواص بمعصية الرسول ومخالفته»(١٢٧)

وواضح من صراحة وايضاح مقولة الزمخشرى أن للعين نصيبا هنا وجزءا من العدوان والتجاوز • وعن اشتراك الأذن واللسان يقـول القرطبى « تناجيتم ـــ تسـاررتم ، بالاثم والعدوان ـــ أى الكذب والظلم »(١٢٨) •

ويلمح العلامة أبو السعود فى هذه الأفعال المثيرة للعجب والمفعمة بالتجاوزات مما يشنع ويفظع من قدرها ، فيقول « ألم تر ـــ والخطاب للرسول ﷺ والهمزة للتعجب من حالهم ، وصيغة المضارع للدلالة على تكرر عودهم وتجدده واستحضار صورته العجيبة » •

ويضيف : « وعنوان الرسالة بين الخطابين المتوجهين اليه ﷺ لزيادة تشنيعهم واستعظام معصيتهم »(١٢٩) •

---

(١٢٧) الكشاف ص ٧٤ جـ ٤ •
(١٢٨)القرطبى ص ٢٩١ ، ٢٩٤ جـ ١٧ •
(١٢٩) أبو السعود ص ٢٧٩ جـ ٨ •

(و) الآيتان اللتان تحكيان تجاوزا عجيبا ودقيقا فى مسألتى : الدعاء والالتزام بأحد المتفق عليهما •

والتجاوز فى الدعاء تحكيه آية ٥٥ من الأعراف وهى قوله تعالى « ادعوا ربكم تضرعا وخفية انه لا يحب المعتدين » فكأن غياب التذلل والتخفى فى الدعاء يجعله دعاء أقــرب الى العقاب منه الى الثــواب والعطاء للتجاوز عما هو مطلوب يقول الزمخشرى « التضرع : تفعل من الضراعة وهو الذل : أى تذللا وتملقا • انه لا يحب المعتدين ــ أى المجاوزين ما أمروا به فى كل شىء من الدعاء وغيره »(١٣٠) •

ويزيد الرازى الأمر جلاء فيقول « التضرع التذلل والتخشع وهو اظهار ذل النفس • والخفية ضد العلانية يقــال أخفيت الشىء اذا سترته » ويضيف : « والمراد أنه لا يحب المعتــدين فى ترك هذين الأمرين المذكورين » ويضيف : « ونفى المحبة التى هى عبــارة عن الثواب معناه أن من كان كذلك كان من أهل العقاب لا محالة» ويحسم المراد فيقول « فظهر أن قوله تعالى : انه لا يحب المعتدين ــ كالتهديد الشديد على ترك التضرع والاخفاء فى الدعاء »(١٣١) •

والتجاوز عن أمر الخيار وأنه ثابت مستقر تحكيه الآية ٢٨ من القصص وهى قوله تعالى « قال ذلك بينى وبينك أيما الأجلين قضيت فلا عدوان على » • يقول الزمخشرى « أيما الأجلين قضــيت : أى أجل من الأجلين قضيت ، أطولهما الذى هو العشر أو أقصرهما الذى هو الثمان • فلا عدوان على ــ أى لا يعتدى عــلى فى طلب الزيادة عليه • أراد بذلك تقرير أمر الخيار وأنه ثابت مستقر وأن الأجلــين

---

(١٣٠) الكشاف ص ٨٣ ج ٢ •
(١٣١) الرازى ص ١٣٠ ج ١٤ •

على السواء »(١٣٢) • ويضيف القرطبى لمحة جديدة فيقول « والمعنى: لا تبعة على ولا طلب فى الزيادة عليه ، والعدوان التجاوز فى غير الواجب »(١٣٣) •

الجهة السادسة من البحث : « سر وجود العداوات » وتنتظم تسع آيات هى :

١١٢ من الأنعام ، ١٢٩ ، ١٥٠ من الأعراف ، ٤٢ من الأنفال ، ١٢٠ من التوبة ، ٨٠ من طه ، ٢ من الممتحنة ، ٤ من المنافقون ، ١٤ من التغابن •

وقد أمكن — بعد النظر الطويل والتأمل الجميل الذى لا ملل فيه ولا ضجر — أن تتحرك الآيات التسع وتتجزأ لتشكل عناصر محددة تحيى تلك الجهة ، على هذا النحو :

(أ) الآية ١١٢ من الأنعام وتحكى قانونا عاما ومعللا لسر العداوات وطبق على أشراف المخلوقات وهم الأنبياء فلا يعبأ بتأوهات من هم دونهم •

(ب) الآيات : ١٢٩ ، ١٥٠ من الأعراف ، ٨٠ من طه ، تحكى ثلاثتها تصويرا ناطقا لمشاعر البشر تجاه هموم العداوات وشماتتها وانجاء الله للمهمومين •

(جـ) الآيات : ٢ من الممتحنة ، ٤ من المنافقون ، ١٢٠ من التوبة ، ٤٢ من الأنفال تحكى — بالترتيب المذكور — نصح الله وتوجيهه لعباده تجاه عدوهم ثم تحريضه عند ملاقاتهم ثم تذكيره بنعمة النصر على عدوهم •

---

(١٣٢) الكشاف ص ١٧٣ جـ ٣ •

(١٣٣) القرطبى ص ٢٧٩ جـ ١٣ •

(د) الآية ١٤ من التغابن تحكى عن عدو عجيب غريب : يؤمر المرء بالحذر منه كما يؤمر بالعفو والصفح عنه •

والآن : الى نصوص الآيات ودرسها واستفراغ ما تجـود به فحواها من بلاغة وعلم •

(أ) الآية ١١٢ من الأنعام وهى قول الله تعالى « وكذلك جعلنا لكل نبى عدوا شياطين الانسان والجن يوحى بعضهم الى بعض زخرف القول غرورا ولو شاء ربك ما فعلوه فذرهم وما يفترون » حيث جيء بالاسلوب التشبيهى المقرب للصورة والموحد فى المعاملة بين أفضـل مخلوقات الله وهم الأنبياء والرسل • ومادة الجعل فى الآية توحى بالعلة وهى الابتلاء كما أن اسلوب الشرط بلو يفيد القدرة المهيمنة على العلة والمعلول ، وواضح أن جعل ذلك للأنبياء يلغى الجدال حوله مع من هم دون الأنبياء وأن كل عداوة لو أحسن استقبالها لعادت بالثـواب والجـزاء الحسن ولا يخفى أن الآيـة جيء بها لتسـلية النبى ﷺ واحاطته علما بنصرته كما نصر اخوانه من قبل • يقول الزمخشرى : والمعنى : وكما خلينـا بينك وبين أعدائك كذلك فعلنـا بمن قبلك من الأنبياء وأعدائهم لم نمنعهم من العداوة لما فيـه من الامتحان الذى هو سبب ظهور الثبات والصبر وكثرة الثواب والأجر »(١٣٤) •

ويرى أبو السعود أن الآية كلام مبتدأ مسوق لتسلية رسول الله ﷺ عما كان يشاهده من عداوة قريش • ومعنى التشبيه وتوضيحه: مثل ذلك الجعل الذى جعلنا فى حقك جعلنا لكل نبى تقدمك عدوا فعلوا بهم ما فعل بك أعداؤك لا جعلا أنقص منه•ويختتم أبو السعود كلامه فى الآية قائلا : وفيه دليل على أن عداوة الكفرة للأنبياء عليهم السلام وبخلقه تعالى للابتلاء »(١٣٥) •

---

(١٣٤) الكشاف ص ٤٥ جـ ٢ •

(١٣٥) راجع أبا السعود ص ١٧٥ جـ ٣

وقبل أن نترك هذه الآية نود أن نعمق مفهوما مربوطا بالابتلاء وهو التعلق الدائم بالله لازالة الهموم وكشف الغشاوات والنصر على الأعداء اذ عندما يتيقن المرء أن كل شيء من الله للابتلاء (نعمة ونقمة) فما عليه الا أن يلهث قلبه بالدعاء الذى يستجلب النصرة عند العداوة كما كان مطلوبا منه اللهث بالشكر لاستدامة النعمة عند الرخاء ، والا حطمته المحنة وقتله أعداؤه بدون سلاح •

(ب) الآيات ١٢٩ ، ١٥٠ من الأعراف ، ٨٠ من طه وهى خاصة ببنى اسرائيل مع نبى الله موسى وأخيه هارون تجاه عدوهم الطاغى فرعون •

تقول آية ١٢٩ « قالوا أوذينا من قبل أن تأتينا ومن بعدما جئتنا قال عسى ربكم أن يهلك عدوكم ويستخلفكم فى الأرض » ، آية ١٥٠ « قال ابن أم ان القوم استضعفونى وكادوا يقتلوننى فلا تشمت بى الأعداء ولا تجعلنى مع القوم الظالمين » •

٨٠ من طه « يا بنى اسرائيل قد أنجيناكم من عدوكم وواعدناكم .... الخ الآية » •

وواضح أن الآية الأولى تحكى على لسان القوم تبرمهم وضجرهم من أذى عدوهم وان كانوا غير مراعين حق نبيهم فى خطابهم له بتلك اللهجة المسفة والخالية من أدب لهم معه • لكنه عليه السلام رد بما يبشرهم وقد تحققت تلك البشرى •

يقول الزمخشرى فى توضيح أذى فرعون لهم « قالوا أوذينا — يعنون قتل أبنائهم قبل مولد موسى الى أن استنبىء واعادته عليهم بعد ذلك وما كانوا يستعبدون به ويمتهنون فيه من أنواع الخدم والمهن ويمسون به من العذاب ويضيف : « وقوله : عسى ربكم .. — تصريح

بما رمز اليه من البشارة قبل وكشف عنه وهو اهلاك فرعون واستخلافهم بعده فى أرض مصر »(١٣٦) ويلمح العلامة الشهاب بلاغة التعبير بالفعل « عسى » فيقول « والتصريح فى قوله : عسى ربكم أن يهلك عدوكم آت من أن « عسى » فى مثله قطع فى انجاز الموعود والفوز بالمطلوب »(١٣٧) يقصد أنها وان كانت فعل رجاء الا أنها أسندت الى الله و لطمع فى الله محقق ومجاب صاحبه •

أما آية ١٥٠ فهى تحكى خوف هارون وحذره من شماتة الأعداء به لما تعرض لغضب أخيه موسى معبرا بذلك عن أمنية العدو فى عدوه وخطر تلك الشماتة حتى أخرجها لأخيه فى صورة منهى عنها ومحذرة يقول الزمخشرى : « فلا تشمت بى الأعداء — فلا تفعل بى ما هو أمنيتهم من الاستهانة بى والاساءة الى »(١٣٨) •

ويقول أبو حيان « أى لا تسرهم بما تفعل بى فأكون ملوما منهم ومنك وقال الشاعر : والموت دون شماتة الأعداء »(١٣٩) •

أما آية طه فهى التى تقرر الارتباط بالله فى محنة الأعداء وتحكى قدرته تعالى على أنجاء المتمسك به والمرتبط بدينه فيضم له مع مرور المحنة بسلام — نعمة السلامة والانجاء فكأنه يتنقل — فى كل حال — من نعمة الى أخرى • يقول الزمخشرى « يا بنى اسرائيل — خطاب لهم بعد انجائهم من البحر واهلاك آل فرعون »(١٤٠) • ويرى من هذا

---

(١٣٦) الكشاف ص ١٢٩ ج ٢ •
(١٣٧) الحاشية للشهاب ص ٢٠٧ ج ٤ •
(١٣٨) الكشاف ص ١١٩ ج ٢ والرازى ص ١٢ ج ١٥ •
(١٣٩) أبو حيان ص ٣٩٦ مجلد ٤ •
(١٤٠) الكشاف ص ٥٤٧ ج ٢ •

الخطاب ، صاحب الظلال ، أنه « اعلان التسجيل والتذكير بالنعمة المشهودة ليعرفوها ويشكروها »(١٤١) •

(ج) أما الآيات الأربع التى تحكى النصح والتوجيه ثم التحريض والحث ثم التذكير بالنعمة فهى الآيات الخاصة بأمة الاسلام والمتنزلة على الرسول الأكرم عليه الصلاة والسلام وهى : ٢ من الممتحنة وتقول « ان يثقفوكم يكونوا لكم أعداء ويبسطوا اليكم أيديهم وألسنتهم بالسوء وودوا لو تكفرون » ، ٤ المنافقون « واذا رأيتهم تعجبك أجسامهم وان يقولوا تسمع لقولهم ••• هم العدو فاحذرهم » وواضح أن آية المنافقون تأمرنا بالحذر وعدم الاغترار بالظاهر وآية الممتحنة تحكى فى أسلوب شرطى كاشف رغبات العدو وأمنياتهم من قتل وشتم ورغبة فى ارتداد المؤمنين الى الكفر فليحذر ولينتصح بذلك المؤمنون • يقول الزمخشرى فى آية الممتحنة « والمعنى : ان يظفروا بكم ويتمكنوا منكم يكونوا لكم أعداء خالصى العداوة ولا يكونوا أولياء كما أنتم • ويبسطوا ••• بالقتال والشتم • وودوا — بلفظ الماضى كأنه قيل وودوا قبل كل شىء كفركم وارتدادكم « ويضيف عبارة لها وزنها فى ميزان العداوات : قائلا « لعلمهم أن الدين أعز عليكم من أرواحكم لأنكم بذالون لها دونه والعدو أهم شىء عنده أن يقصد أعز شىء عند صاحبه »(١٤٢) •

وآية المنافقون تحصر العداوة الكاملة فى هذا الصنف من النفاق والمداجاة « هم العدو » ثم يلى اسلوب القصر هذا ، اسلوب التحذير والطلب الملح ليقع الأمر موقعه فى النفاذ بعد تقرير العداوة السابقة بالطريقة القصرية المتقدمة • يقول الزمخشرى « هم العدو — أى

---

(١٤١) الظلال ص ٢٣٤٥ جـ ١٦ •

(١٤٢) الكشاف ص ٩٠ جـ ٤ والرازى ص ٢٩٩ جـ ٢٩ •

الكاملون فى العداوة لأن أعدى الأعداء العـدو المداجى الذى يكاشرك وتحت ضلوعه الداء الدوى•فأحذرهم ـ ولا تعتر بظاهرهم »(١٤٣) •

أما الآية المحرضة لملاقاة العدو ومنازلته فهى ١٢٠ من التـوبة وهى قوله تعالى : « ما كان لأهل المدينة ومن حولهم من الأعراب أن يتخلفوا عن رسول الله ولا يرغبـوا بأنفسهم عن نفسـه ذلك بأنهم لا يصيبهم ظمأ ولا نصب ولا مخمصة فى سبيل الله ولا يطأون موطئا يغيظ الكفار ولا ينالون من عدو نيلا الا كتب لهم به عمل صـالح أن الله لا يضيع أجر المحسنين » وهى آية ـ لما فيهـا من ثواب وأجر عظيمين ـ توجب المشايعة لأهل الحق ومنازلة العدو للظفر بهذه المنازل العالية عند الله تعالى • فهى تعدد وتنوع فى تصرفات المؤمن وتقرر له فى كل حالة أجرا عظيما بدلالة تنكير عمل ووصفه بصالح وتقرير الجملة الخبرية المختتم بها الآية(١٤٤) • كل هذا اذا اعتمد على نهى متقدم وترك لما لا رغبة فيه ، ازداد الحث وتقويت العزائم • أما آية ٤٢ من الأنفال « اذ أنتم بالعدوة الدنيا وهم بالعدوة القصوى ••• ولكن ليقضى الله أمرا كان مفعولا » فهى تذكر المسـلمين بنصر الله لهم فى يوم الفرقان وكيف قهر الله عدوهم وصنع للمسلمين هذا النصر المبين على عدوهم رغم قلة العدد والعدة • يقول فى ذلك صاحب الظلال « ان وراء هذا التلاقى على غير موعد ـ بهذه الدقة وبهذا الضبط ـ لأمرا مقضيا يريد الله تحقيقـه فى عالم الواقع »(١٤٥) • ويقـول الزمخشرى فى مكان العدوتين « والعدوة : شط الوادى • والدنيا مما يلى المدينة • والقصوى مما يلى مكة »(١٤٦) • ويقول أبو السعود فى

(١٤٣) الكشاف ص ١٠٩ جـ ٤ •

(١٤٤) راجع ما ذكره الكشاف ص ٢٢٠ جـ ٢ والرازى ص٢٢٤/١٦

(١٤٥) الظلال ص ١٥٢٥ جـ ١٠ •

(١٤٦) الكشاف ص ١٦٠ جـ ٢ •

الأمر المقضي « الأمر الحقيق بأن يفعل من نصر أوليائه وقهر أعدائه »(١٤٧) •

(د) أما الآية ١٤ من التغابن وهى « يا أيها الذين آمنوا ان من أزواجكم وأولادكم عدوا لكم فاحذروهم وان تعفوا وتصفحوا وتغفروا فان الله غفور رحيم » •

فهى بعد أن حددت هذا العدو وأوضحت ملازمته للانسان فهو زوجه أو ولده ، وليس ملازما بغيضا ، بل من الملازمات المرغوبة والمتلهف عليها ، ثم تحث بالاسلوب الطلبى وبصيغة الأمر على الحذر وعدم الاغترار بوداعته أو هدوئه ، ثم بعد ذلك تشوق وترغب فى العفو والصفح والغفران له لأن ذلك يقابله ما هو أكرم وأسخى من الله تعالى •

وبذلك تكون الآية مبقية على الود داخل بيوتنا وحاشة على الرد الجميل فيها وموطئة الى زرع الأمل والاصلاح موضع الشؤم والافساد والا ضاقت الدنيا بطولها وعرضها عن أن نوجد فيها بيتا نأوى اليه • وكأن الملازمة وعدم التخلص بين الطرفين هى التى حتمت تلك الملانية والتوادد والا وقع ما لا يحمد عقباه(١٤٨) •

الجهة السابعة والأخيرة وهى : قدرة الله تعالى فى تحويل العداوات وقلب الودادات • وآيات هذه الجهة ، ثمانى آيات :

أ ـ آيتان توضحان الفرق بين العداوة والوداد وهما : ١٥،١٩ من القصص •

---

(١٤٧) أبو السعود ص ٢٤ ج ٤ •

(١٤٨) راجع وتأمل فحاوى ما ذكره الزمخشرى ص ١١٥ ج ٤ وأبو السعود ص ٢٥٨ ج ٨ •

ب ــ ثلاث آيات تحكى تحويل العداوة الى صداقة وداد وهى ٧ من الممتحنة ، ٣٤ من فصلت .

جـ ــ ثلاث آيات تحكى انقلاب الصداقات والودادات الى عداوات ومخاصمات وهى : ٨ من القصص ، ٦٧ من الزخرف ، ٦ من الأحقاف، ١٠٣ من آل عمران .

والآن الى التوضيح والدرس :

أ ــ آيتا القصص هما قول الله تعالى « ودخل المدينة .... فوجد فيها رجلين يقتتلان هذا من شيعته وهذا من عدوه فاستغاثه الذى من شيعته على الذى من عدوه فوكزه موسى فقضى عليه قال هذا من عمل الشيطان انه عدو مضل مبين » ، قوله تعالى « فلما أن أراد أن يبطش بالذى هو عدو لهما قال يا موسى .. الخ الآية » .

وواضح من نظم الآيتين أنهما يفرقان بين الذى من شيعته والذى من عدوه أى بين المشايع والمناصر والموادد من جهة ، والمعادى والمخالف من جهة أخرى ، ثم بين الصنيع مع المشايع والمعادى ، فمع الأول مناصرة ومؤازرة ومع الآخر مقاتله وبطش وفتك .

يقول الزمخشرى : « من شيعته : ممن شايعه على دينه . ومن عدوه : من مخالفيه من القبط »(١٤٩) . وبلاغة التصوير لما حدث آتية من الاشارة المحكية « هذا من ــ ... وهذا .

يقول الشهاب « والاشارة على الحكاية ــ أى بهذا ، واقعة على طريق الحكاية لما وقع وقت الوجدان كأن الرائى لهما يقوله لا فى

---

(١٤٩) الكشاف ص ١٦٨ جـ ٣ .

المحكى لرسول الله ﷺ »(١٥٠) وبذا يتبين أن المشايعة : معاونة واغاثة ومناصرة ، والمعاداة : مقاتلة وبطش •

(ب) والآيات الثلاث التى تحكى قدرة الله فى تحويل العداوات الى مشايعة ومعاونة ووداد فنصوصها كالتالى •

آية الممتحنة هى قوله تعالى « عسى الله أن يجعل بينكم وبين الذين عاديتم منهم مودة والله قدير والله غفور رحيم » • فهى وعد من الله على ذلك وزاد من حسن بلاغته فعل الترجى الذى هو مع الله محقق وهو « عسى » ثم فعل الجعل والانشاء والايجاد ثم صيغة البينية المشعرة بتخلل العداوات وجريانها فى مشاعر ونفوس الطرفين ثم ايراد صلة الموصول بفعل المعاداة « عاديتم » ثم تنكير « مودة » أى من نوع ما أو مودة تذهب معها المشاعر كل مذهب ثم التوكيد والتثبت من ذلك بختم الآية بجملة اسمية مصاغة من مادتى القدرة التى لا تعجز والرحمة التى لا تغفل « والله قدير والله غفور رحيم »•

يقول الزخشرى « عسى — وعد من الله على عادات الملوك حيث يقولون فى بعض الحوائج عسى أو لعل فلا تبقى شبهة للمحتاج فى تمام ذلك » ويضيف : « والله قدير على تقليب القلوب وتغيير الأحوال وتسهيل أسباب المودة »(١٥١) •

ويذكر أبو السعود وأبو حيان أن الله أنجز ما وعد فأسلم قومهم وثم بينهممن التحاب والتصافى وأن الآية كانت مؤنسة ومرجئة حتى تحقق فى عام الفتح(١٥٢) •

---

(١٥٠) حاشية الشهاب ص ٦٨ ج ٧ •
(١٥١) الكشاف ص ٩١ ج ٤ •
(١٥٢) أبو السعود ص ٢٣٨ ج ٨ وأبو حيان ص ٢٥٥•

وأما آية فصلت فهى تضع الأساس وتوجه بالحسنى والأحسن. فتقول « ادفع بالتى هى أحسن فاذا الذى بينك وبينه عداوة كأنه ولى حميم » • وواضح الحث من صيغة الأمر وكذا التحقق المباغث للمحسن من أداة المباغتة والمفاجأة ، اذا ، لكن ، لماذا قيل : كأنه ولى حميم، وحذف أداة التشبيه أبلغ ؟ ذكر الألوسى جواب ابن عطية عن هذا فقال : « دخلت كأن المفيدة للتشبيه لأن العدو لا يعود وليا حميما بالدفع بالتى هى أحسن وانما يحسن ظاهره فيشبه بذلك الولى الحميم »(١٥٣) • والمعنى كما يقول الألوسى « ادفع السيئة حيث اعترضتك من بعض أعاديك بالتى هى أحسن منها وهى الحسنة » • ويضيف : « على أن المراد بالأحسن الزائد مطلقا أو بأحسن ما يمكن دفعها به من الحسنات كالاحسان الى من أساء فانه أحسن من مجرد العفو »(١٥٤) ولا يخفى أن موقع قوله « ادفع بالتى هى أحسن » بالنسبة لما قبله ، هو موقع الاستئناف أو شبه كمال الاتصال أو موقع الجواب اثر السؤال الذى تقديره : كيف أصنع(١٥٥) ؟

أما آية آل عمران فهى تحكى على مرأى ومسمع من القوم كيف حول الله العداوات بين الأوس والخزرج • والتى استمرت ما يربو على المائة عام ، الى ألفة ووداد وأخوة كلها التراحم والتوادد •

يقول الله تعالى « واذكروا نعمة الله عليكم اذ كنتم أعداء فألف بين قلوبكم فأصبحتم بنعمته اخوانا » • يقول الزمخشرى «ولا تفرقوا — كما كنتم متفرقين فى الجاهلية متدابرين يعادى بعضكم بعضا

---

(١٥٣) الألوسى ص ١٢٣ جـ ٢٤ •
(١٥٤) الألوسى ص ١٢٣ جـ ٢٤ •
(١٥٥) الألوسى ص ١٢٣ جـ ٢٤ •

ويحاربه • اخوانا ــ متراحمين متناصحين مجتمعين على أمر واحد هو الأخوة فى الله »(١٥٦) •

(ج) أما الآيات الثلاث التى تحكى انقلاب المحبة والتزلف والوداد الى شقاق ومخاصمة وعداوة فهى آيات يحكمها ضابط واحد ، هو أن تلك الودادات كانت لغير وجه الله شابت بالعداوة الحقيقية التى لن تتحول الى ودادات يوم القيامة :

فآية القصص « فالتقطه آل فرعون ليكون لهم عدوا وحزنا » واللام هنا فى « ليكون » حكمها ــ كما يقول الزمخشرى ــ « حكم الأسد حيث استعيرت لما يشبه التعليل كما يستعار الأسد لما يشبه الأسد »(١٥٧) • لأنه لم يكن داعيهم الى الالتقاط أن يكون لهم عدوا وحزنا ولكن ليكون ابنا محبوبا • فكأن التبنى والتحاب المرتقب تحول الى عداوة وحزن عكرت على فرعون حتى أتت عليه فأكلته وأغرقته بدليل أن ما بينه وبين نبى الله موسى ــ وقد تربى فى بيته ــ تحول الى مقاتله ومحاربه حتى انتهت بغرقه ونجاة نبى الله عليه السلام •

وآية الزخرف « الأخلاء يومئذ بعضهم لبعض عدو الا المتقين » فالآية ناطقة ومقررة باسلوبها الخبرى الحاسم فى وقت وظرف له ما بعده فان تقررت الصلة بين المتحابين على أنها حب يرضى الله وفى الله بقيت ودامت والا فانقلبت الى عداوة ومشاقة تدوم ولا تتغير يقول الزمخشرى « يومئذ ــ أى تنقطع فى ذلك اليوم كل خالة بين المتخالين فى غير ذات الله وتنقلب عداوة ومقتا الا خلة المتصادقين فى

---

(١٥٦) الكشاف ص ٤٥١ جـ ١ •

(١٥٧) الكشاف ص ١٦٦ جـ ٣ •

الله فانها الخلة الباقية المزدادة قـوة اذا رأوا ثواب التحـاب فى الله »(١٥٨) .

وآية الأحقاف « واذا حشر النـاس كانوا لهم أعـداء وكانوا بعبادتهم كافرين » أى عبادة الأصنام أو عبادة المتخذين من دون الله كعيسى وعزير والملائكة فكل هؤلاء يعادون العابدين لهم فى الدنيـا فتنقلب بذلك ودادات الدنيـا — وان كانت من طـرف العـابد الى غافل(١٥٩) — الى نكد ومضرة وعداوة صريحة من معبـوديهم الذين هم عباد الله تعالى .

نعوذ بالله من ذلك ، وندعوه أن نكون من أحبابه وأحباب رسوله ومن أعداء كل باغض لدين الله وشرعه وأن ينفعنـا بما نعلم ونقـرأ « آمين » ...

أ.د / يحيى محمد يحيى
أستاذ البلاغة بكلية اللغة العربية
بأسـيوط

---

(١٥٨) الكشاف ص ٢٩٥ جـ ٣ .
(١٥٩) راجع فى ذلك ص ٥١٥ جـ ٣ والرازى ص ٦ جـ ٢٨ .